وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور- الجلفة -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ والآثار

مطبوعة خاصة بمقياس:

تاريخ الحضارات القديمة

دروس موجهة لطلبة السنة الأولى علوم إنسانية

السداسي: سنوي الرصيد: 02 المعامل: 02 التقييم: امتحان+ مراقبة مستمرة

إعداد الدكتور: أحمد ثليجي

السنة الجامعية: 2020-2021م

محاور المقياس:

المحور الأول: الحضارة مفهومها وعوامل قيامها

المحور الثاني: المصادر المادية والأدبية لدراسة الحضارة

المحور الثالث: حضارة بلاد النهرين

المحور الرابع: حضارة فارس وعيلام

المحور الخامس: حضارة سوريا القديمة

المحور السادس: الحضارة المصرية القديمة

المحور السابع: الحضارة الإغريقية

المحور الثامن: الحضارة الرومانية

المحور التاسع: الحضارة الفينيقية

المحور العاشر: الحضارة القرطاجية

المحورالأول: الحضارة مفهومها وعوامل قيامها

تمهيد:

لقد شهد العصر الحديث قيام لون من الدراسات والمناهج العلمية تتجه لتفسير حركة التاريخ الإنسانية وحضاراتها المتعددة، وفقا لمذاهب علمية وضع أسسها أفراد. وهذه المذاهب هي ثمرة جهد علمي دؤوب يدل على مثابرة أصحابها، وميلهم إلى إعمال عقولهم في الحياة والكون من حولهم وهي تبحث في عوامل التحضر بشتى صورها: المادية والروحية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد بحث الناس كثيرا في أصول الحضارات، وكيف نشأت، وما هو الشيء الذي يكوّن ذاتية الحضارة وطابعها المعروف؟، وما هي التطورات التي تميز مرحلة عن الأخرى؟ ثم ماهيتها التي تستمر خلال مراحل وجودها المتتالية.

إن المفكرين والفلاسفة اليونانيين كانوا يرون أن مكتشفات الحضارة كلها ترجع إلى الذكاء الإنساني وحده دون أن يفسحوا المجال للتجربة أو للظروف التي تحفز على الكشف والاختراع وكانوا يرون أن آلهتهم خصتهم من دون البشر بالتفوق في ميدان الفهم والعلم والاختراع والابتكار، وكل ما عداهم من البشر بربري لا حضارة لهم أو على مستوى متدني من الحضارة.

أما المسلمون فغالبية مفكريهم يرون أن الله أعطى الإنسان العقل والفكر والحكمة، وأنه اهتدى بعقله إلى أسس الحضارة أو العمران وسار في معارج التقدم، ولكنهم كانوا يرون إلى جانب ذلك أن الله دلّ الإنسان على ما ينفعه رحمة منه ورفقا به.

1- تعريف الحضارة:

أ- لغة: لقد عرف العرب من قديم المقابلة بين الحضر والسفر وهو التنقل والترحال، فكأن المقابلة بين الحضارة والبداوة، هي مقابلة بين الاستقرار والتنقل، وقد كان يوصف أهل الحضر بأنهم أهل "المدر" وهو قطع الطين المتماسك، أو أهل الحجر لأنهم يسكنون بيوتا متينة ثابتة، خلافا لأهل "الوبر" الذين يسكنون

الخيام من وبر الإبل أو صوف الغنم أو شعر الماعز[1].

وقد قال ابن منظور في لسان العرب: الحضر: خلاف البدو، والحاضر: المقيم في المدن والقرى. والبادي: المقيم في البادية. والحضارة: الإقامة في الحضر[2].

كما أشار كذلك إلى نفس المعنى الفيروز آبادي في القاموس المحيط: " بأن الحضارة هي الإقامة في الحضر"[3].

وبهذا فإن اللغويين قد اتفقوا حول لفظة "حضارة" وأصلها وإجماعهم على أنها ضد البداوة، وتحمل مظاهر العمران بالسكان والرقي الحياتي من علوم وفنون وآداب.

أما الحضارة في اللغة الأجنبية فهي ترجمة للفظة الإنجليزية"Civilization" ، والتي يعود أصلها إلى عدة جذور في اللغة اللاتينية؛ "Civilties" بمعنى مدنية، و "Civis" أي ساكن المدينة و "Cities"وهو ما يُعرف به المواطن الروماني المتعالي على البربري. ولم يُتداول الاشتقاق "Civilization" حتى القرن الثامن عشر، حين عرفه دي ميرابو في كتابه «مقال في الحضارة» باعتباره رقة طباع شعب ما وعمرانه ومعارفه المنتشرة بحيث يراعي الفائدة العلمية العامة[4].

ب- اصطلاحا:

أما عن التعريف الاصطلاحي فنجده في القواميس الفكرية والموسوعات وعند الكثير من العلماء والمفكرين القدامى والمحدثين.

فقاموس الحضارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية (سامي ذبيان وآخرون) يشير إلى أن الحضارة هي مجموعة معقدة من الظواهر الاجتماعية ذات طبيعة قابلة للنقل، تضم طابعا دينيا وخلقيا وجماليا وتقنيا وعلميا مشتركا بين جميع أجزاء مجتمع واسع أو عدة مجتمعات متصلة[5].

أما الموسوعة السياسية (عبد الوهاب الكيالي وآخرون) فإنها ترى أن " الحضارة هي مجموعة المنجزات الفكرية والاجتماعية والأخلاقية التي يحققها مجتمع معين في مسيرته لتحقيق الرقي والتقدم"[6].

- **الحضارة عند ابن خلدون:**

يرى عبد الرحمان ابن خلدون المتوفى سنة (808هـ/1406م): "أن الحضارة هي نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار ,ويضفى على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة , وإدارة شؤون الحياة والحكم , وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية".

كما يشير في مقدمته إلى: " أنّ الناس حين تخطَّوا في كسبهم للمعاش ما هو ضروري وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى و الرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنُّق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضُّر "[7].

ويضيف ابن خلدون: " ثمّ تزيد حالة الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنّق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوّة إلى الفعل إلى غايتها فيتّخذون القصور والمنازل ويُجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون من استجادة ما يتّخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون. وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان[8]".

كما نجد عند ابن خلدون " أن الملك زائد على الرئاسة، وأن الحضارة زائدة على الضروري من العمران، وأن الترف زائد على الحضارة"[9] .

- **الحضارة عند مالك ابن نبي:**

إن قيام أي حضارة عند مالك ابن نبي لا يكون إلا بتوفر " مجموع الشروط الأخلاقية والمادية[10]، التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه.

وعلى هذا فالحضارة هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، ومن هذا المنطلق فإن معنى التحضر هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة، وأن

يدرك شبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية، كما أنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره.

عناصر الحضارة عند مالك بن نبي :

إن المفكر ابن نبي عندما جاء إلى تعريف الحضارة، طبق عليها آليتين أو منهجين متكاملين: أولاً: المنهج التحليلي، إذ حلل الحضارة إلى عناصرها الأولية التي تعتبر الرأسمال الأولي، وصاغها في شكل معادلة رياضية ذات متغيرات ثلاثة هي الإنسان والتراب والوقت، وقوامها:

إنسان+تراب+وقت=حضارة.

ثانيًا: المنهج التركيبي، الذي من خلاله أراد أن يكتشف القانون الذي تخضع له الحضارة في بنائها، وتحديد المنهج الذي تخضع له الحضارة باعتبارها بناءً، وهو ما أسماه بقانون التفاعل، إذ العناصر الأولية تبقى ساكنة ما لم تتدخل الفكرة المركّبة، محدثة الشرارة الروحية التي تجعل من العناصر الأولية ديناميكية متحركة في إطار التاريخ.. هذه الفكرة المركبة التي تحدث الشرارة هي الدين، أو الفكرة الدينية.

إذن فالعناصر الضرورية التي تتشكل منها كل الحضارات -حسب مالك بن نبي- هي ثلاثة: الإنسان + التراب + الوقت.

- **<u>الحضارة عند حسين مؤنس:</u>**

يرى مؤنس أن الحضارة "هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته .. سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة، مقصوداً أم غير مقصود .. وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية" [11]..

وهذا المفهوم للحضارة مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ، لأن التاريخ هو الزمن، والثمرات الحضارية التي ذكرناها تحتاج إلى زمن لكي تطلع، أي أنها جزء من التاريخ، أو نتاج جانبي للتاريخ فلا بد أن يتكاثر صنع الشيء ويتراكم حتى يكون له أثر في حياة الإنسان، ويصبح جزء من هذه الحياة، فإذا صنع الإنسان شيئا ثم رمى به وتركه، ولم يعرف كيف يستفيد منه لم تكن له قيمة حضارية.

- **الحضارة عند ول ديورانت:**

يرى "ول ديورانت" صاحب "قصة الحضارة"، أن الحضارة هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها[12].

- **الحضارة عند أرنولد توينبي:**

من أبرز الخائضين الغربيين في هذا المجال المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي (A.Toynbee) الذي ركز على أصل الحضارة ومنشئها، فقدم نظرية متفرِّدة في هذا السياق هي نظرية "التحدّي والاستجابة"، أوما نستطيع التعبير عنه بنظرية "الفعل وردّ الفعل .(Action et réaction) " فالحضارة ،في تصوره، لا تنشأ إلا ردّ فعل لعوامل خارجية أو داخلية ولتحديات بشرية أو طبيعية.

فهو يرى في تعريفه للحضارة بأن السلوك الإنساني الذي ينتج الحضارة، هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة الذي يكون هو المثير والدافع والحافز للإنسان كي يتغلب على ما يواجهه، ومن ذلك عوامل في طبيعة الإنسان نفسها، مثل حاجاته للطعام والشراب والدفء والاستقرار والأمن، وهناك منافسة الإنسان الآخر على ذلك، ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات، وهكذا ترجع الحركة التاريخية إلى نوع من التفاعل بين الإنسان والبيئة، وتكون الحضارة هي ثمرة تحدي الإنسان لبيئته ونوع استجابته لها[13].

ولم يصغْ توينبي هذه النظرية إلا بعد أن درس مجموعة من التجارب الإنسانية الحضارية في الشرق والغرب معاً؛ ومن أهمها حضارتا اليونان والرومان، والحضارتان السومرية والفرعونية. فقدماء المصريين مثلا مروا بظروف حياتية عصيبة بسبب قسوة الطبيعة في الجنوب المصري (قلة الكلأ- انتشار الجفاف...)، مما جعلهم يتحركون طلباً لأماكن أخرى تتوفر فيها أسباب العيش وشروطه، فقصدوا النيل الأوسط والأعلى، وبذلوا جهودا معتبرة هناك، وأقاموا حوله حضارة قوية دامت مئات السنين.

الحضارة عند شبنجلر:

يرى شبنجلر صاحب كتاب "انحلال الغرب" " The decline of the west " وهو من أهم الكتب الفكرية في العصر الحديث، أن التاريخ مكون من كائنات حية عضوية هي الحضارات، إذ تشبه كل حضارة الكائن العضوي تمام التشابه، فميلاد الحضارات ونموها وازدهارها ثم أفولها ما هي إلا عملية بيولوجية تشبه ما يحدث للكائنات الحية، فتاريخ كل حضارة كتاريخ الإنسان سواء بسواء، وبذلك يكون التاريخ العام بمثابة الترجمة لحياة هذه الحضارات التي تعتبر تراكيب عضوية.

ولما كانت المراحل التي تمر بها أي حضارة (مولد ونمو وازدهار وانحلال) هي نفسها التي تمر بها كل الحضارات، فانه بالا مكان التنبؤ بمستقبل أي حضارة. وبناء على ذلك تنبأ شبنجلر بزوال الحضارة الغربية، حتى أنه حدد عمرها من (900 م- 2400 م)[14].

2- عوامل قيام الحضارة:

هناك عوامل كثيرة لقيام أي حضارة من الحضارات، وقد تختلف بين العرب والغرب في بعض منها نتيجة الاختلافات الفكرية والعقائدية بين هذين العالمين، ولكن الملاحظ أنها تتفق في عوامل جوهرية لا يمكن لأي حضارة أن تقوم بدونها وهي:

أ- **الإنسان**:

الذي مهما اختلفت أجناسه ومواقعه الجغرافية والطبيعية، فإنه يختص بخصائص جسمية وذهنية مكنته من التوصل إلى اكتشاف فوائد كثيرة في أشياء متعددة، مما كان يحيط به في بيئته وعلى مرأى بصره منذ نشأته الأولى، حيث بدأ يتعامل مع الطبيعة ويكتشفها شيئا فشيئا، ثم سيطر على النار واكتشف المعادن، وبدأ في ابتكار الأشياء كصنع الأسلحة والأواني الفخارية وغيرها، وهذه الأشياء نفسها شحذت ذهنه، وأطلقت عقله فمضى يستزيد من الاكتشافات والابتكارات زمانا بعد زمان حتى تمكن مع نهاية العصر الحجري الحديث وبداية العصور التاريخية من إقامة إطار حضاري اجتماعي ومادي ضمن له الأمن والرزق المنتظم في ظل قبيلة متماسكة ومتعاون أعضاؤها بعضهم مع بعض، ويحكمها نظام معين،

وهذه القبيلة هي التي كانت القاعدة الصلبة التي مهدت لرحلة الإنسان مع الحياة في ظل تطوره الحضاري المستمر والمتسارع.

ب- <u>الدين أو (العقيدة)</u> :

لقد جعل مالك بن نبي عنوان أحد محاور كتابه :" شروط النهضة" : أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة ، وهو يؤكد أن شروط النهضة الثلاثة : الإنسان، والتراب، والوقت. لا يمكنها أن تحدث أثرا ولا أن تجلب للبشرية تحضرا ورقيا ما لم يكن هناك عنصر حاسم في الدفع بهذه الثلاثة إلى ميدان الإعمار. هذا العنصر اللاحم المركب لشتات العناصر (CATALISEUR) لن يكون أبدا سوى الدين بمفهومه الواسع عند كل الأمم[15].

فالعقيدة تعتبر من أهم العوامل التي تؤدي إلى قيام الحضارة، فلا حضارة دون عقيدة تدفعها وتغذيها، ولإعطاء مثال على ذلك نرى الحضارة الإسلامية، حيث نجد صلة الإنسان المسلم بعقيدته صلة عضوية لا تنفصم عراها، ولا تقبل التجزئة لأنها نابعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما يجعلها دستورا لحياة المسلم تنير بصيرته وتملأ قلبه، وتجعل الإنسان في حالة وفاق مع سنن الكون[16].

وبالمقابل فإن الحضارات الأخرى كانت لها عقائدها المختلفة والتي تمثل عاملا أساسيا في قيام الحضارة رغم ما دخلها من تحريف، بعد أن كانت ديانات صحيحة تدعو إلى التوحيد، وذلك بفعل الإنسان الذي أدخل فيها خرافات وهرطقات ابتدعها أو أخذها من مذاهب فلسفية شتى وصارت مع الزمن جزء من تلك الديانات وذهبت بمضمونها الأصلي وتحولت إلى متناقضات، ولكن رغم هذه المتناقضات فإن هذه الحضارات القديمة يمثل فيها الدين جانبا أساسيا حيث يدخل في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

ج- <u>العوامل الطبيعية والبيئية</u>:

تعتبر من العوامل التي تسمح، أو تساعد، على قيام نشاط حضاري فعلي في أي حضارة من الحضارات. فالظروف الطبيعية، الجيولوجية والمناخية، وتحديدا الموقع الجغرافي، هي التي سمحت بتطور

حياة الإنسان الأول ووفرت إمكانيات نشوء حضارته. فالشروط الطبيعية والبيئية هي التي جعلت بعض أحواض الأنهر وأوديتها الخصبة والمعتدلة المكان الملائم لقيام الجماعة البشرية الأولى ولتشكل حضاري حقيقي، فحضارة بلاد النهرين مثلا كانت أولى الحضارات في العالم القديم التي ظهرت عند ملتقى ومصب دجلة والفرات في جنوب العراق، حيث توفرت للإنسان السومري آنذاك البيئة الملائمة لقيام حضارته ولكن بعد أن بذل جهودا جبارة في تحديه لتلك البيئة، وفي وادي النيل في مصر، وفي الوادي الهندي، والصين وغيرها.

المحور الثاني: المصادر المادية والأدبية لدراسة الحضارة

يعتمد المؤرخ في دراسته لأي حضارة على العديد من المصادر التي يأتي في مقدمتها المصادر الأثرية ثم المؤلفات الكلاسيكية اليونانية والرومانية، يليها المصادر المعاصرة في المناطق المحيطة بتلك الحضارة، ثم ما ورد في الكتب المقدسة، وسنحاول في هاته المحاضرة أن نقدم نماذج لمصادر مادية وأدبية لحضارات العالم القديم وخاصة لأهم حضارتين في التاريخ، وهما الحضارة العراقية القديمة أو ما يسمى بحضارة بلاد النهرين والحضارة المصرية القديمة.

1- المصادر الأثرية:

أدت أعمال الحفائر التي أجريت في الكثير من مناطق العالم القديم إلى الكشف عن مجموعات هائلة من الآثار المتنوعة والمخلفات المادية، ما بين آثار ثابتة كالمعابد والقصور والمنازل والزقورات والأهرامات والمسلات وغيرها، وآثار متنقلة كالتماثيل وأدوات الزينة والأسلحة وأواني الفخار وغيرها من الأدوات المنزلية الأخرى....

فالآثار المادية تشمل جميع المخلفات المادية التي تعود إلى الماضي سواء كان قريبا معاصرا، أو بعيدا يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، بحيث تغطي أنواع الفنون، مثل العمارة ، الزخرفة، والرسومات والنقوش بما فيها الآثار المشاهدة كالمباني التذكارية الكبرى أو التي ظلت مغمورة تحت التراب والتي لا يمكن التعرف عليها إلا عن طريق التنقيبات الأثرية أو التي قد يتم الكشف عنها أحيانا عن طريق الصدفة.

إن المصادر المادية تمثل بحق شواهد حقيقية وأصيلة للنشاط الإنساني وتفاعله، حيث تعتبر أصدق المصادر وأكثرها اقترابا من الحقيقة لأنها تعكس الواقع بعيدا عن ميول الباحث وتوجهاته الفكرية والإيديولوجية، وكمثال على ذلك الآثار الرومانية بالجزائر التي تظهر بصدق المستوى الحضاري لتلك الفترة من حيث شكل البناء وطراز العمارة، ونوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية، كما هو دون تحوير أو تغيير، ما عدا ما يمكن أنه طرأ عليها نتيجة تأثير عوامل المناخ والزمن، والتي يجب أن يأخذها الباحث

بعين الاعتبار.

وكمثال على المصادر المادية المهمة جدا في تاريخ الشرق الأدنى القديم ما وجد في بلاد النهرين، وما تم الكشف عنه عن طريق التنقيب حيث عثر على مئات الآلاف من الألواح المتضمنة الكثير من التسجيلات التاريخية والفكرية والدينية والأدبية والقانونية والتي أدت إلى إماطة اللثام عن الكثير من الغموض الذي يكتنف تاريخ بلاد النهرين، فاصبح في متناول الباحثين المادة العلمية التي تمكنهم من تتبع المراحل المتتالية لبلاد النهرين، وكذلك التطور الحضاري في مظاهره المتعددة، سواء كانت مادية أو فكرية.

وتشكل الآثار المادية من منحوتات وفخاريات ونقوش وبقايا مباني، المادة الأساسية لدراسة مراحل عصور ما قبل الكتابة والتدوين، نظرا لعدم توصل الإنسان فيها إلى معرفة الكتابة.

أما عن مصادر الحضارة المصرية فنشير إلى الوثائق المكتوبة بالخط الهيروغليفي على الحجارة وأوراق البردي ويأتي في مقدمتها : حجر باليرمو وبردية تورين وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة. بالإضافة إلى متون الأهرام التي دوّنت على جدران الأهرامات في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة في عهد الدولة القديمة.

كما نشير إلى رسائل تل العمارنة والتي هي عبارة عن مجموعة من رسائل الود والسياسة تبادلها القصر الفرعوني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد مع ملوك الشرق وأمرائه، منقوشة بالخط المسماري باللغة البابلية الأشورية على قطع من الطين المحروق، وتوضح لنا العلاقات بين مصر وسوريا وفلسطين وبابل وأشور وميتاني في أيام أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (أخناتون).

2- **<u>المصادر الكتابية (الأدبية)</u>:**

وهي مصادر أساسية للمادة الخام، وسجل تفصيلي للحوادث، وتعرف عادة "بالأصول" وتعتبر أرقى أنواع المصادر المسجلة، مع أنها لا يمكن أن تتجرد من الانطباع والتأثر الذي يلاحظ على الكاتب من خلال تأثره بالأحداث وما تتركه في نفسيته، مما يجعل الحقيقة يكتنفها بعض الشك، يحد من مدى موضوعيتها وصدقها ونزاهتها، ولهذا يجب أن تؤخذ نفسية كاتبها ومسجلها بعين الاعتبار من طرف الباحث عند التعامل مع المادة التاريخية.

وكمثال على المصادر الكتابية نجد كتابات المؤرخين الكلاسيكيين اليونان والرومان الذين زاروا الكثير من مناطق الشرق الأدنى القديم، وكتبوا عنها في مؤلفاتهم التي كتبوها، وعلى الرغم من أهمية هذا المصدر باعتباره شاهدا على تطورات تلك الفترة في التاريخ القديم للشرق الأدنى، حيث وصفوا مشاهداتهم، كما نقلوا عن مؤرخين محليين فقدت كتبهم ولم يبقى منها إلا ما كتبه اليونانيون والرومان، إلا أنه يؤخذ على هذا المصدر العديد من المآخذ، ومنها روح التعصب التي عرفت عن الغربيين وحضارتهم وإظهارها وكأنها أرقى من غيرها، وعلى ذلك فقد اهتموا بإبراز نواحي الغرابة في الحضارات الشرقية، وكذلك اهتمامهم بالأساطير والروايات المنقولة دون التأكد من صحتها، يضاف إلى ذلك جهلهم بلغات ولهجات البلاد التي قاموا بزيارتها وهذا ما أثر على كتاباتهم .

ومن بين هؤلاء المؤرخين والجغرافيين اليونانيين والرومان الذين كتبوا عن حضارات الشرق القديم والكثير من مناطق البحر الأبيض المتوسط نذكر:

أ- **<u>هيكاتيوس المليتي</u>:** ولد في مدينة ميليتوس بآسيا الصغرى في بداية النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد، ولقد أطلق عليه لقب "أبو الجغرافيا" لأنه يعتبر أحد مؤسسي علم الجغرافيا. زار معظم الأقطار التي كانت خاضعة للفرس، حيث زار آسيا الصغرى وسوريا والعراق وفارس وأيضا مصر، وكان حريصا في رحلاته على جمع الحقائق الجغرافية الخاصة بهذه البلاد، وكذلك أيضا بعض المعلومات التاريخية، ونشر هذه المعلومات في كتابه "خريطة العالم".

وقد تضمن كتابه من الناحية التاريخية قائمة لتتابع حكّام أشور على العرش، وتعتبر هذه القائمة التي أوردها هيكاتيوس من أولى الأعمال في هذا المجال بالنسبة للمؤرخين اليونانيين والرومان[17].

ب- **<u>هيرودوت (Hérodote) (484-420 ق.م)</u>::**

ولد في هاليكارناسوس في جنوب غرب آسيا في بداية القرن الخامس قبل الميلاد، ولا يمكن تحديد تاريخ مولده بالضبط. ومات في ثورى في جنوب إيطاليا عام 420 ق.م. ولقد ترك مقر مولده قبل عام 454 ق.م. وقد قام بزيارة العديد من المناطق والحضارات وكتب عنها ومن بينها مصر

وفينيقيا وبابل، ويعتبر بعض الباحثين أن رحلته إلى مصر وبابل كانت من أهم رحلاته على الإطلاق[18]. وقد تمت هذه الرحلات في المرحلة الأخيرة من حياته. وقد جاء كتابه التاريخ في تسعة أجزاء:

بحيث تناول في كتابه الأول بلاد بابل، ولكن يلاحظ أن المعلومات التي أوردها عن بابل تفتقر إلى الموضوعية والدقة، وتتصف بالسطحية وكثرة الأخطاء، ويرجع ذلك ربما إلى جهله بلغة البلاد واعتماده في كتابته على روايات غير موثوق بها سمعها من المترجمين الذين كانوا يحاولون إضفاء الإثارة على كلامهم بذكر أشياء خيالية، وإضفاء المبالغة على الأحداث التي يروونها.

كما ذكر المغرب القديم الذي هو جزء من ليبيا، في الجزئين: الثاني والرابع، والذين يتحدث فيهما عن ليبيا وسكانها الليبيين. فقد ذكر ان ليبيا تقع الى الغرب من مصر وهي متصلة بها، وتحدث عن لباس الليبيين، وطريقة دفنهم ومساكنهم وطريقة حلق شعورهم وطبيعة المنطقة وحيواناتهم الأليفة والمتوحشة وأخرى أسطورية، كما تحدث عن القرطاجيين وطبيعة بلادهم وتجارتهم مع سكان المنطقة.

ت- <u>اكسينفون Xenophon (429- 354 ق.م)</u>:

من المؤرخين اليونان القلائل جداً الذين حفظت لنا أعمالهم. ومن أفضل أعماله مؤلفه الذي عنوانه (Anabasis والذي يفيد معنى الصعود» أو حمله إلى الداخل وهو يعتبر سيرة ذاتية، وهو يصور مغامرات عشرة آلاف مرتزقة يونان من أجل الحياة تحت قيادته، إذ كان هؤلاء الجنود المرتزقة يحاربون في صفوف كوروش الصغير ضد أخيه أرتكسركسيس الثاني، وقد منيت الحملة بالهزيمة بعد مقتل كوروش وعاد المرتزقة اليونان إلى بلادهم حيث واجهوا الكثير من المصاعب والأخطار وكانوا تحت قيادة اكسينفون .

ويصف "اكسينفون" رحلة الحملة وهي تسير بمحاذاة الفرات باتجاه الجنوب وهو في ذلك يتحدث بشكل مختصر عن الزراعة في هذه المنطقة، وكيفية استغلال المياه وسحبها في قنوات من

نهر دجلة وهو يصف أيضاً أطلال المدن المندثرة في شمال بلاد الرافدين.

ث- <u>ديودورالصقلي (Diodore de Cicile) (80-30 ق.م)</u> :

مؤلف من القرن 1ق .م، نشأ في صقيلية بين القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، عاصر يوليوس قيصر واغسطس، كتب تاريخ العالم منذ اقدم العصور حتى حرب قيصر على بلاد الغال 54 ق.م عنونه بـ"المكتبة التاريخية"، وهي سنة الاتفاق الثلاثي الأول بين بومبي وقيصر وكراسوس التي تعتبر نقطة تحول في تاريخ الجمهورية، ويتكون مجلده من 40 كتابا، لم يصلنا منها سوى الكتب من 1-5 و 11 و 20 وشذرات من بقية الكتب 21 و 40. ولقد خصص كتبه الثلاث الأولى لدراسة الأقطار غير اليونانية وهي مصر وبلاد النهرين والهند وسيكثيا وبلاد العرب واثيوبيا وشمال إفريقيا.

وفي هذه الأخيرة تحدث عن الملك اغاتوكليس ونقله للحرب إليها، واستيلاءه على املاك قرطاجة، كما تحدث عن النوميديين، وذكر بانهم يسكنون بمحاذاة قرطاجة، وقسّم سكان المغرب الى أربع فئات: القرطاجيين، الليبيين الفنيقيين الذين يسكنون السواحل لهم حقوق المواطنة القرطاجية، النوميديين وتشمل هذه التسمية كامل سكان المناطق الداخلية الذين يعادون القرطاجيين، والسكان الرحل الذي يتوزعون في المناطق الداخلية حتى مشارف الصحراء، اعتمد ديودور النقل عن مؤرخين سابقين والمفاضلة دون تبرير منطلقاتها.

ج- <u>استرابون (Strabon)</u>:

هو جغرافي إغريقي، ولد في أماسيا في اقليم بونتوس على البحر السود، وكان شديد الثراء مما مكنه من التنقل إلى مناطق عديدة في العالم، عاش ما بين القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول ميلادي، وتتميز كتاباته بأنها نوع من الجغرافية التاريخية، ولقد قسم مؤلفه إلى سبعة عشرا جزءا وزع عليها أقاليم العالم[19].

المحور الثالث: حضارة بلاد النهرين

1- تمهيد:

لقد شهد الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين العديد من الدراسات الأثرية، في النصف الجنوبي من بلاد النهرين، وكان ذلك إيذانا بالكشف عن حضارة السومريين والأكاديين في عديد المدن مثل: كيش والوركاء ولجش ونفر وغيرها، وامتدت التنقيبات الأثرية كذلك إلى العديد من مناطق الشمال مثل أشور و نينوى وغيرها، وظهرت العديد من الدراسات الغربية والعربية واتسمت في كثير من الأحيان بالطابع العلمي في الكشف عن الآثار وقراءة النصوص وتحليلها، بل زاد اهتمام الباحثين والأثريين والمؤرخين بآثار فترة فجر التاريخ فنقبوا في الجنوب واكتشفوا آثار تل العبيد وجمدة نصر، ونقبوا في الشمال واكتشفوا آثار جرمو وتل حلف وحسونة، وهو ما يبين أن كل فترة من فترات تاريخ بلاد النهرين جديرة بالمتابعة والدراسة والبحث.

ولعل أحسن منطلق للحديث عن هذه الحضارة وعن الأقوام العراقية القديمة وتاريخها الطويل أن نبدأ بتحديد المكان الذي نشأت فيه تلك الحضارة. فالمكان يعرف عادة بتسمية من التسميات التي تعطي بمدلولها فكرة واضحة عن الإطار الجغرافي للمنطقة، ويبدو أن نصيب العراق القديم من هذه التسميات في الكتب التاريخية قديمها وحديثها كان كبيرا، فأطلقت تسميات مختلفة ذات مدلولات متباينة للدلالة على ذات المكان. وغالبا ما أطلقت تسميات لا تشير إلا على جزء من أجزاء العراق القديم للدلالة على الكل, كما استخدمت تسميات ذات صيغ وأشكال أجنبية في محاولة من بعض الباحثين الأجانب لفصل الماضي عن الحاضر وتجريد العراق الحديث من تاريخه وتراثه العريق.

ومن التسميات التي أطلقها الباحثون على العراق القديم هي بلاد سومر وهو مصطلح كان يستخدم قديما للدلالة على الجزء الجنوبي من السهل الرسوبي، وبلاد أكاد الذي كان يدل على الجزء الشمالي من السهل الرسوبي، أو بلاد سومر وأكاد، أو بلاد بابل أو بلاد أشور، ومن التسميات الأخرى التي استخدمها الباحثون بلاد النهرين أو ما بين النهرين، إما بصيغتها العربية أو بصيغتها الأجنبية "ميزوبوتاميا"[20].

2- **موقع العراق وطبيعته الجغرافية**:

يقع العراق في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا ويتمتع بموقع استراتيجي وتجاري ذي أهمية قصوى، فقد كان ملتقى الطرق التجارية الموصلة بين البحر المتوسط والمحيط الهندي والشرق الأقصى والهند، وكان لهذا الموقع التجاري المتميز أثره الواضح في حياة سكان العراق الأقدمين واهتمامهم بالتجارة ونشاطهم في تطوير النظم الاقتصادية المختلفة.

وتتألف أراضي العراق من مساحات واسعة للزراعة لا سيما في القسم الجنوبي من البلاد الذي شهد نشوء إحدى أعرق الحضارات الإنسانية المعروفة، وتشق تلك الأراضي الواسعة الأنهار العظيمة (دجلة والفرات) التي تترسب فيها المواد الغرينية سنويا فتجدد خصوبتها, وقد ساعدت هذه الطبيعة المعطاء على نمو مختلف أنواع المحاصيل الزراعية، كما ساعدت على توفر أنواع كثيرة من الحيوانات ذات الفائدة الاقتصادية.

غير أن هذه الطبيعة الغنية بمواردها لم تكن لتيسّر وتسخر لخدمة الإنسان إلا بعد جهود بشرية كبيرة استلزمت توحيد الجماعات والأفراد، ونشوء الإدارات المركزية المشرفة على تنظيم العمل، وكان ذلك على مراحل طويلة وغنية بالإنجازات في حضارة بلاد النهرين.

3- **المراحل الكبرى لحضارة بلاد النهرين**:

1/ المرحلة السومرية:

أثبتت الاكتشافات الأثرية أن أقدم الحضارات الهامة في بلاد النهرين تطورت على يد قوم ليسوا من الأقوام السامية, ولم يعرف جنسهم الأصلي على وجه التحديد حتى الآن, وهم يسمون "السومريين"[21]. ويبرز العنصر السومري على مسرح التاريخ السياسي والحضاري منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد حتى قيام الدولة الأكادية في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد.

وتعتبر سومر مهد حضارة بلاد النهرين من حيث كونها أقدم المواقع الأثرية المهمة التي شهدت أعرق حضارة معروفة في تاريخ البشرية, وهي مهد إرساء دعائم الحضارة العالمية نظرا لما أنتجته من قيم حضارية و إبداعية كانت بمثابة أساس ارتكزت عليه مقومات التقدم البشري.

واتجهت الآراء في تضمين أصل السومريين إلى عدة مذاهب, كان منها ما افترض أصحابه ورأوا أن أجداد السومريين هاجروا إلى جنوب بلاد الرافدين من المرتفعات الشمالية, والشمالية الشرقية التي تحف بها عن طريق أرمينيا وإيران, ولو أنه يمكن أن نستبعد أرمينيا أساسا من هذا الفرض, على اعتبار أنه كان من المستبعد أن يهبط المهاجرون منها وهم أولوا قوة ويتجاوزوا المناطق الصالحة للاستيطان القريبة منها في شمال بلاد الرافدين, ليذهبوا بعيدا عنها ثم يستقروا في الأجزاء الجنوبية التي كانت أطرافها لا تزال حينذاك وحشية الطابع, تتطلب مجهودات كبيرة لتهذيبها وتسهيل الانتفاع به[22].

وهناك رأي آخر يذهب إلى اعتبار السومريين بدوا جاؤوا من وراء القوقاز, أو مما وراء بحر قزوين, اندفعوا على مناطق غرب إيران فيما يعاصر عصر العبيد,أو أوائل عصر الوركاء, ونجحوا في اقتباس حضارة بلاد النهرين التي امتدت منها عبر حدود إيران ثم استعانوا بما تعلموه منها, وبخفة الحركة البدوية, في الاندفاع إلى جنوب بلاد النهرين منذ الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد, وهو الرأي الذي ذهب إليه صمويل كريمر الذي يعتقد أن هجرة السومريين قد سبقت ظهور الكتابة مباشرة, وأنه لم يكن عليهم أن يبسطوا سلطانهم على المنطقة وحدهم وإنما كان عليهم أن يواجهوا في الوقت نفسه هجرات سامية غربية لم تكن تنقطع اندفاعاتها على حدود بلاد النهرين.

ومن المحتمل أيضا أن السومريين كانوا يقيمون في جنوب أرض الرافدين منذ العصور السابقة للتاريخ, وقد بلغوا هناك في عصر متقدم مرتبة عالية من الحضارة, فقد بدأوا شق القنوات, واستغلال التربة بعقل وتدبير, وإقامة المعابد والتماثيل وغيرها من مظاهر الحضارة[23].

وقد تركت الحضارة السومرية طابعها المباشر في آشور وسوريا ومصر، ولكن لم يقابل هذا اتساع في النفوذ السياسي، فالواقع أن السومريين كانوا عاجزين دائما من الناحية السياسية عن بناء دولة كبيرة،

فقد كانوا منقسمين إلى دول في مدن وبما يشبه ما أصبح يسمى فيما بعد (city-states) أي أن البلاد في هذه المرحلة كانت مجزأة إلى عدة مناطق تقوم في كل منها دويلة صغيرة مستقلة في جميع شؤونها السياسية والعسكرية والإدارية عن غيرها من الدويلات المجاورة.

وكان ملوكها هم الكهنة والممثلين للآلهة المحلية، وتاريخ المدن السومرية قصة متصلة من التنافس, كان التوازن هو الوضع الطبيعي فيها، ولكنه كان ينقطع من حين إلى حين بتفوق إحدى المدن على الأخرى لفترة قصيرة، والسبب في هذا التنافس هو محاولة الحصول على المزيد من الأراضي والسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى مصادر المواد الخام. وكانت الدولة الوحيدة التي بلغت مكانة مرموقة هي تلك التي وفق الملك "لوجال زاجيزي" "lugalzaggisi" إلى إنشائها حول مدينته "أوما" "umma" (تل جوخة حاليا)[24]. ولكن بعد أن احتفظ بسيادته سنين عدة غلبته أخيرا دولة سامية تمثلت في الأكاديين، وكان ذلك حوالي 2350ق.م.

ويمكن أن نشير إلى أنه, ومن خلال التطور السياسي في العهد السومري, أن الملك في المدن السومرية لقب في بداية أمره بلقب إنسي"ensi" ربما بمعنى النائب أو الوكيل, إشارة إلى وكالته عن معبود مدينته في حكم بلده وأهلها, وإشارة إلى القداسة بالوكالة التي يرتكز عليها في ممارسة سلطاته الدينية والمدنية. وعلى أية حال فإن التنظيم السياسي لحكومة المدينة السومرية إنما يمثل مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني, لأنه يشهد بتواجد التفكير الديمقراطي في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة بناء على قرارات الجمعية العمومية التي تضم كل الرجال الأحرار من مواطني حكومة المدينة- وربما اشترك فيها النساء أيضا- ومن ثم يمكن القول بأن التنظيم السياسي لحكومة المدينة إنما قد نشأ مع قيام المدن نفسها[25].

2/<u>المرحلة الأكادية</u>:

إذا كانت الدولة السومرية اعتمدت على تنظيم المجتمع تنظيما سياسيا, وكان الكهنة على رأسه من خلال توليهم السلطة الروحية والمادية, وتسيير المعبد الذي يعتبر النواة الأساسية في الحضارة السومرية,

فإن الوضع قد تغير مع الأكاديين الذين يختلفون عن السومريين من حيث البنية الاقتصادية والاجتماعية.

لقد توتر الوضع بين السومريين ودولتهم وأفكارهم الدينية من جهة, وبين الساميين سكان البادية من جهة أخرى الذين لهم أفكارهم الخاصة التي تقوم على أساس حرية الفرد, منسجمة وطبيعتهم في حب الغزو, والتنقل غير المشروط , فهي تترك للفرد حرية العمل وجمع الثروات من جهة, بينما تميل من جهة أخرى إلى فرض الإرادة الخاصة على الغير. وعندما أخذت العقلية السومرية التنظيمية تدور في حلقة مفرغة وتميل نحو الزوال- عندما عجزت عن تلبية المتطلبات والرغبات الخاصة- سارع الساميون الأكاديون من جهتهم إلى اتخاذ الإجراءات الضرورية الحيوية والواقعية في هذا المجال ليسدوا ذلك الفراغ.

والأكاديون فرع من هجرات سامية متتالية تكاثرت أعدادها في بوادي بلاد النهرين والشام قبيل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد, ثم تشعبت فروع كثيرة, فكان منها ما انتشر في بوادي الشام, واتجهت آمال بعض جماعاته إلى مناطق الهلال الخصيب فيها, كما كان منها ما اقتربت جماعاته من المناطق الخصبة في أواسط حوض نهر الفرات ببلاد النهرين, وعرف أصحاب الشعبة الأولى باسم أطلقه السومريون عليهم وهو(الأموريون) ربما بمعنى أهل الغرب, أما جماعات الشعبة الأخرى, فكان أظهر فروعها فرع(الأكاديين) الذين اكتسبوا اسمهم مؤخرا نسبة إلى العاصمة أكاد (أو أجادة)، التي أصبحت مركزا لنشاطهم السياسي والحربي بعد فترة من استقرارهم في بلاد الرافدين, وبعد أن انتظمت أمورهم وعز شأنهم فيها[26].

وكان الأكاديون قبل ظهورهم على المسرح السياسي بزمن يقيمون في أرض الرافدين حول أطراف المدن السومرية, ويعيشون على الرعي وفق تقاليدهم القديمة, وكان أول عمل كبير أثبتوا به وجودهم هو ذلك النصر الذي قضوا به على مملكة "لوجال زاجيزي" وأقاموا مكانها دولة أكد السامية.

وقد سيطر زعماء أكاد على بعض المدن السومرية النشأة كانت أهمها مدينة "كيش" صاحبة الأثر القديم في مجريات الحوادث بين المدن السومرية الكبيرة, فاستفادوا من حضارتها هي وأمثالها وتأقلموا معها شيئا فشيئا, ولم يكن لديهم ما يضيفونه إليها وهم أهل بادية, غير دماء فتية طموحة, قدر لها فيما بعد أن تنجح في تكوين أول دولة كبيرة مستقرة في بلاد النهرين ولأن تشكل مستقبلها الدولي خلال ما يزيد عن قرن ونصف قرن[27].

وكان مؤسس دولة أكاد هو "سرجون" "saragon" الذي تقول عنه الأساطير أنه كان بستانيا من قبل, وأنه ترك وهو طفل رضيع على مياه النهر, ولكنه أنقذ بمعجزة بمساعدة الإلهة عشتار التي ساعدته للوصول إلى الحكم . وقد مد سيطرته فشملت إقليم بابل كله وآشور وسوريا, بل تغلغلت في آسيا الصغرى أيضا, وفي عهده صارت للدولة إدارة مركزية منظمة أصبحت تحتذيها الدول اللاحقة.

ولم يقض سرجون – كما يعتقد للوهلة الأولى- مدة حكمه في الحروب وساحات القتال, وإخضاع القبائل والشعوب لسلطانه فحسب, وإنما خصص وقتا كافيا لإنجاز المشاريع الاقتصادية وبناء الدولة، ولا شك في أن الوحدة التي أقامها هذا الملك بين مناطق بلاد النهرين هي التي سهلت عليه تنفيذ هذه المشاريع التي اقتضت وحدة ضمت جميع مقاطعات البلاد ومدنها, وذلك عكس ما حدث في عهد دول المدن السومرية, وخاصة في مرحلتها الأخيرة أين كثرت المنازعات حول المياه وملكية الأراضي الزراعية.

وكان التفاعل الحضاري بين الأكاديين والسومريين قد بدأ خلال عصور مبكرة جدا من تاريخ غرب آسيا القديم, أي قبل أن يستأثر الأكاديون بالسلطة في بلاد الرافدين, ولم يمنع الاختلاف العرقي واللغوي الأكاديين من تبني أفكار السومريين الدينية, ومؤسساتهم وأخلاقهم وهذا تحت تأثير العلاقات الاقتصادية التي أقاموها معهم[28].

وأدت الأعمال التي قام بها سرجون إلى توطيد أكاد وصمودها ما يقرب من قرنين من الزمان إلى أن اكتسحتها قبيلة الجوتيين التي انحدرت من جبال إيران الشمالية الشرقية.

وقد تمثلت هذه القبيلة في الشعب الجوتي البربري الذي نزح من جبال إيران الشمالية الشرقية، وغزا بلاد النهرين. وجاءت اليقظة السومرية كرد فعل على سياسة الأكاديين التكتيكية التوسعية على يد جوديا "Godea" أمير لجش الذي كان يميل إلى الفكرة السلمية اللاتوسعية.

وفي الأخير يمكن أن نقول أن فترة الأكاديين كانت لامعة من الناحية السياسية والحضارية لأنها تعتبر أول محاولة للتوحيد في بلاد النهرين, بعد العمل الذي قام به"لوجال زاجيزي"الذي ذكرناه سابقا، كما أنها حاولت نشر العلوم, والمعارف, والفنون, والكتابة في بلاد الرافدين والأقطار المجاورة, وقد وجدت ألواح من الطين مكتوبة بالخط المسماري, وباللغة الأكادية في كثير من المناطق البعيدة مثل الأناضول.

وفي المرحلة ما بين(2111-2002 ق.م) برزت سلالة أور الثالثة وقامت بإحياء الحضارة السومرية حيث تقدمت القيم الثقافية والإنسانية في هذا العهد تقدما ملموسا, وانتشرت المعارف من علوم وآداب وفنون, ودونت كثير من الأخبار التاريخية القديمة, وشرعت القوانين التي تنشر قيم العدالة في المجتمع.

3/<u>المرحلة البابلية</u>:

يعرف البابليون بالأموريين الذين انتشروا بين المدن المتحضرة في بلاد النهرين واستقروا فيها وولوا حكم بعضها, وكانت بابل قبل زعامتهم لها, بلدة عادية عرفها السومريون باسم "كدنجيرا" فأحالوها إلى حاضرة كبيرة وأحسنوا استغلال موقعها الزراعي والتجاري, لقيامها في منطقة خصبة يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات .

وقد عرفها الأكاديون أيضا باسم "باب إليم" "Bab-ilim" أي "بوابة الإله"، وقد ذكرت لأول مرة بهذا الاسم في أواخر القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد عندما بنى فيها الملك "شاركال شاري"معبدا للإلهة عشتار, وتحول اسم "باب–إليم" إلى بابل في التوراة, وبابيلون "Babylon "عند الإغريق[29].

وقد أخذت المعلومات تتواتر عن الأموريين بكثرة في المصادر القديمة بعد زمن نرام سين الأكادي, فقد أشار إليهم الملك الأكادي الأخير"شاركال شاري" وجوديا حاكم لجش، وأغلب ملوك سلالة أور الثالثة بخاصة الملك الأخير شوسين, الذي عرف بتشييده سورا منيعا لوقف زحفهم على المدن العراقية وسماه

بسور مارتو, ويمكننا الاعتماد على بدء ذكرهم في المصادر العراقية القديمة للوصول إلى تحديد تاريخ هجرتهم.

فالمصادر من عهد الدولة الأكادية تشير إليهم كقوة عسكرية وقفت في وجه زحف الأكاديين على بلاد الشام, فلا بد أن تكون بداية هجرتهم إلى موطنهم الأصلي في بلاد الشام قبل زمن هذه المصادر, وإذا ما عرفنا بأن بداية الدولة الأكادية ترجع إلى حوالي 2350ق.م أمكننا إضافة بضعة قرون على هذا التاريخ واعتبار النتيجة تاريخ بداية هجرة الأموريين إلى بلاد الشام, أي ما بين (2800-2500 ق.م[30]) .

ولقد شهدت السنين الأخيرة من الألف الثالثة قبل الميلاد احتضار الشعب السومري في نهضته الثانية, وانقرض به حكم السومريين نهائيا, فبعد سقوط سلالة أور الثالثة تألفت عدة دويلات في مدن مختلفة, إحداها في"ايسن" والأخرى في"لارسا" والثالثة في"بابل", وكان النزاع على أشده فيما بينها, فساعد هذا التنازع الذي استمر نحو قرنين, الأموريين على إظهار استقلالهم في بابل وما حولها بعد انتصارهم على المدن المتنازعة, فتشكلت المملكة البابلية السامية التي صارت تعرف بالمملكة البابلية القديمة، وهي المملكة السامية الثانية بعد الإمبراطورية الأكادية .

وقد أطلق المؤرخون تسمية العهد البابلي القديم على الفترة التي حكمت فيها هذه المملكة والتي دامت ما يقرب من أربعة قرون، أي منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد وحتى نهاية سلالة بابل الأولى (حوالي 1600 ق.م), وتشمل عهد سلالتي ايسن و لارسا, وسلالة بابل الأولى.

وفي نفس الفترة اشتهرت في هذا العهد سلالة حكمت في ماري(على الفرات الأوسط) وهي سلالة من الساميين الغربيين, وقد كشفت التنقيبات الفرنسية في هذه المدينة عن حضارة مزدهرة وأبنية لقصور فخمة مزينة بنقوش بديعة, كما وأنه وجدت فيها مجموعة كبيرة من ألوح الطين تعد بعشرات الألوف, تحتوي على مواضيع مهمة في مختلف صنوف العلم والمعرفة. إضافة إلى ذلك فقد كانت مملكة اشنونا (في منطقة ديالي) من الدول التي لعبت دورا هاما في هذا العهد, وقد عثرت مديرية الآثار العراقية في إحدى مدنها القديمة ولا سيما في (تل حرمل) على مجموعة كبيرة من وثائقها التاريخية, ومن ذلك مثلا

شريعة مملكة اشنونا التي سبقت شريعة حمورابي إضافة إلى ما وجد فيها من الكتابات العلمية المدونة على الرقم الطينية[31].

وعلى أية حال فإنه إذا ألقينا نظرة عامة على تلك السلالات الحاكمة من دويلات المدن والتي حكمت في العهد البابلي, وجدنا أن هذه الحقبة أثرت كثيرا في تاريخ بلاد الرافدين من الناحية السياسية, فقد كانت هذه السلالات في صراع ونزاع مستمرين فيما بينها على السلطة.

وأخيرا تمكنت سلالة بابل الأولى من القضاء على تلك الدويلات المتنازعة, فأعادت نظام المملكة الموحدة, ووسعت رقعتها شيئا فشيئا بضم كافة المدن المستقلة تحت نفوذها، وخاصة في عهد ملكها السادس المشرع الكبير حمورابي(1792-1750ق.م)الذي تمكن بأعماله الحربية من فرض الزعامة السياسية في جميع أنحاء الشرق الأدنى, واشتهر بقوانينه العادلة وإدارته الحاسمة, بالإضافة إلى إصلاحاته الكثيرة[32].

وكان أول ملوك هذه السلالة الملك"سمو-أبوم" (sumu-Abum) الذي حكم13سنة، بين سنتي-1881 (1894 ق.م) وقد اتخذ بابل عاصمة له, وكانت بابل في ذلك الوقت بلدة صغيرة لم تشتهر بعد, كما كان يقطنها بعض الأعراب الغربيين، وبقايا الأكاديين الذين كانت عاصمتهم أكاد قريبة من منطقة بابل.

وكان سادس ملوك الدولة البابلية هو حمورابي الذي يعد من أعظم ملوك هذه الدولة بل وأشهرهم جميعا, وعرفت البلاد بأسرها باسم العاصمة بابل، وكان عهده بداية فترة أخرى من الازدهار العظيم، ففي الميدان السياسي امتدت سلطة بابل إلى آشور وجزء من سوريا, وفي المجال الديني يرجع إلى حمورابي خاصة الفضل في علو شأن الإله "مردوك" الذي أصبح زعيم الآلهة، وأصبحت طقوس عبادته هي الطقوس الرسمية للدولة[33]. وفي المجال الاقتصادي نظم حمورابي البلاد من جديد وأصلحها بالتوسع في الزراعة, وشق الكثير من القنوات الجديدة وتنظيم الري, والعمل على توسيع نطاق التجارة.

وقد كان برنامج حمورابي هو تقوية الإدارة الداخلية أولا وتوطيد دعائم عرشه في الداخل, ثم تقوية وسائل الدفاع حول المدن الهامة، وقد جمع حمورابي خصالا عديدة جعلته قائدا وسياسيا ومشرعا

ومصلحا, وكان قد شرع بتقوية الإدارات والمؤسسات, وتوطيد حكم الإمبراطورية البابلية القديمة, وكان لهذه السياسة أكبر الأثر في نهضة بابل السريعة, حيث أعاد حمورابي إمبراطورية سرجون الأكادي وكان انتصاره حدثا نوعيا في تاريخ بلاد الرافدين.

ولم تقم شهرة حمورابي على أعماله العسكرية والسياسية فحسب, بل على جملة التحولات الحضارية التي أرسى دعائمها في أرجاء الدولة كافة, ومن جملة هذه الإنجازات الحضارية وضعه لمجموعة من القوانين التي حظيت بشهرة كبيرة في شتى ربوع أرض الرافدين وحتى خارجها, وتعتبر مجموعة القوانين هذه من أقدم القوانين في العالم, ومن أكثرها شمولا وأرفعها مستوى.

وقد انتهت الدولة البابلية الأولى حوالي1350ق.م, حيث أغار عليها الحيثيون، وهم من شعوب آسيا الصغرى, فكانت غارتهم رغم قصر أمدها بداية فترة من السيطرة الأجنبية, هي الفترة التي أخذت فيها "شعوب الجبال" تسيطر على الشرق الأدنى, والتي يرجح أنها كانت من الشعوب الهندو أوربية[34].

ولم يكد الحيثيون ينسحبون حتى دانت بابل لسيطرة أجنبية أخرى, هي سيطرة الكاشيين وهم شعب من الشرق, يبدو من أسماء آلهته, أنه كان يضم عناصر هندية-أوربية، وكانوا يعيشون في بابل نتيجة فترة طويلة من التغلغل السلمي, ولكنهم استفادوا من الفترة التي ساد فيها الحيثيون, فاغتصبوا السلطة واحتفظوا بها بضعة قرون حتى حوالي 1160 ق.م، وكان مستوى حضارتهم أقل كثيرا من حضارة البلد الذي غلبوه, فأدت سيطرتهم إلى اضمحلال شديد في حضارة بلاد النهرين.

4/<u>المرحلة الأشورية</u>:

بينما كان الكاشيون يسيطرون على بابل, كان شعب سامي يتقدم نحو الصدارة في شمال بلاد النهرين, ونعني به الأشوريين, الذين ينتسبون إلى اسم أشور، هذا الاسم الذي تسمّت به كل من الأرض والعاصمة والمعبود الأكبر وسكان شمال بلاد النهرين الأوائل , وكانت شهرتها ترجع إلى ما كان يتحلى به جيشها من تنظيم وتماسك.

والأشوريون في الأصل فرع من الأقوام السامية التي هاجرت من مهد الساميين الأصلي وهو جزيرة العرب على ما يقول به جمهور الباحثين, إلا أنهم لم يأتوا رأسا من جزيرة العرب إلى شمال بلاد النهرين وهم بدو غزاة, وإنما حلوا في موطن مؤقت بعد هجرة أجدادهم من الجزيرة, وانتقلوا منه إلى البلاد التي صارت فيما بعد موطنا ثابتا لهم، ويفترض العلماء لذلك فرضين أولهما:

أن الأشوريين جاؤوا من الجنوب من أرض بابل- وربما في العهد الأكادي- معتمدين في ذلك على التقارب بين اللغتين الأشورية والبابلية رغم وجود بعض الاختلافات بينهما.

وثانيهما أن الأشوريين موجة أرامية جاءت من سوريا, أي أنهم من الساميين الغربيين وربما كان الرأيان صحيحين، بمعنى أن الأشوريين فرع من الساميين الذين جاؤوا من سورية كما أنهم فرع من الساميين الذين جاؤوا من الجنوب من بابل[35].

ويرى بريستد خلاف ذلك حيث يقول: " أن سكان المنطقة الواقعة إلى الشمال من بلاد بابل ليسوا من الأصل السامي جميعا, بل كان يعيش بينهم أقوام يتكلمون لغات غير سامية ومن أجناس غير سامية, ففي الألف الثالث قبل الميلاد كان يعيش في المكان الذي تقوم فيه مدينة أشور بلدة سومرية عثر على آثار أهلها هناك"[36].

وكانت الدولة الأشورية قائمة فعلا منذ بضعة قرون, فقد حكمت في تلك الأرجاء عند ملتقى القرن التاسع عشر بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد أسرة أكادية أسسها "ايلو شوما"illushuma "ثم تبعتها أسرة أمورية أسسها شمشي-أدد "shamshi-Adad "الأول الذي يكون حسب وثائق ماري معاصرا ومنافسا لحمورابي، وقد جاءت بعد هذه المرحلة المتقدمة من دولة الأشوريين فترة طويلة من الاضمحلال انتهت بها في القرن الخامس عشر,إلى أن تصبح تابعة لدولة الحوريين في أرض ميتاني"Mitani ", ولكن في القرن التالي عندما قضى الحيثيون على سلطان ميتاني استطاعت أشور أن تنهض من جديد وتصبح دولة عظمى[37].

ولم تبدأ حروب أشور التوسعية إلا حوالي932ق.م وكان الآراميون المستوطنون في بلاد الرافدين أول فريسة لها, وقد انتصرت عليهم وضمتهم إليها بين سنتي932 و859 ق.م، وبعد ذلك في أيام شلمانصر الثالث احتلت موطئ قدم لها على شاطئ الفرات الغربي, وعملت على احتلال سوريا وضمها إليها.

وكانت سياسة أشور تتبع خطوطا أساسية ثلاثة: ففي الشمال كان ملوكها يهدفون إلى السيطرة على الممرات الجبلية لحماية أنفسهم من التهديد بالغزو من ذلك الطريق, وفي الغرب فرضوا على سوريا وفلسطين الجزية, وسيطروا على الطريق المؤدي إلى مصر والبحر, وفي الجنوب كانوا يعاملون دولة بابل التي تفوقهم في مضمار الحضارة بحكمة دبلوماسية, مكنت "تجلت-بيلصر الثالث" أخيرا من أن يجلس على عرش بابل أيضا.

ومن هذا المنطلق فقد اتسع سلطان الدولة الأشورية، وشمل معظم أنحاء الشرق الأدنى القديم، فدخلت أجزاء من بلاد وادي النيل تحت النفوذ الأشوري إضافة إلى فلسطين وسوريا وأجزاء من آسيا الصغرى، كما خضعت للسيطرة الأشورية جميع الأقوام القاطنة في المناطق الجبلية الواقعة في الشمال والشمال الشرقي من البلاد.

وكان آشور بانيبال(Ashur banibal) (668-626ق.م) الذي اشتهر في الأساطير باسم"سردانا بالوس" آخر كبار ملوك الأشوريين, ولكن خلفاءه لم يلبثوا أن تهاووا أمام هجوم الميديين الذين زحفوا من هضبة إيران واستولوا عام612 ق.م على نينوى عاصمة الأشوريين وخربوها تخريبا, وهكذا انهارت الإمبراطورية الأشورية وابتلعت الرمال قصورها العظيمة[38].

وعلى كل حال فإن الأشوريين أنفسهم ورعاياهم الغريبين عنهم, أصبحوا فريسة للنشاط الأشوري الذي بذل لبناء الإمبراطورية, فقد نقص السكان في موطن الأشوريين الأصلي بسبب الذين سقطوا قتلى في الحروب, وبسبب ما فرضته إقامة المستعمرات والحاميات الأشورية في البلاد المفتوحة من نزيف في القوى البشرية, والثغرة التي حدثت في أرض الوطن الأشوري عبئت عن طريق استيراد أقوام غريبة, حتى أن سكان النواة الأشورية أصبحوا شبه أراميين, يضاف إلى ذلك أن التوتر الاجتماعي الذي فرضه على

الشعب الأشوري تجنيده المستمر للحملات العسكرية البعيدة, والتي كانت تتزايد, أثار اضطرابات سياسية داخلية.

إن الدولة الأشورية بنت وجودها على أساس عسكري حربي فحملها ذلك على استخدام الخيل والمركبات الحربية, وابتداع المنجنيق وأنواعه، وبحكم احتكاك الأشوريين بالشعوب والأمم المتحضرة كالحيثيين, والأموريين, والأراميين, والفينيقيين, تمكنوا من صنع الآلات المعدنية المصنوعة من النحاس الأحمر, ثم توصلوا إلى استعمال البرونز, ثم استعملوا بعد ذلك الحديد في صنع الأسلحة إذ تعلموا صناعته من الحيثيين الذين سبقوهم في إتقان استخلاصه وصناعته، وهذا الاهتمام بالصناعة العسكرية هو الذي مكنهم من التوسع في القرون التالية, وقد ساعدتهم فتوحاتهم على توسيع تجارتهم, فحذق تجارهم أساليب التجارة وعاش كثير من التجار في محلات أنشأ وها في عدة أماكن في جنوب شرق آسيا الصغرى[39].

وقد اشتهر الأشوريون بقدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية, فيطبعونه بطابعهم الخاص بمنتهى الدقة, وذلك مما حملهم على الاهتمام بالفنون الجميلة والأدب,ولا أدل على اهتمامهم بالناحية الأدبية والثقافية مما تركوه من ميراث حضاري في خزانة الكتب(ألواح الطين) التي أنشأها الملك آشور بانيبال(669-626ق.م).

وفي الأخير يمكن أن نقول أن الأشوريين تركوا لمن خلفهم من أمم تراثا حضاريا مجيدا على الرغم من اهتمامهم الشديد بالناحية العسكرية التوسعية, فقد حدثت بعد وفاة آشور بانيبال سنة 626 قبل الميلاد منازعات على العرش أوهنت جهاز الحكم الأشوري, فانفصلت المقاطعات البعيدة كمصر والمدن الساحلية في فلسطين وسوريا عن المملكة الأشورية, وكذلك انتهزت بابل الفرصة وانفصلت عنها واستقلت بزعامة الأمير الكلداني"نابو بولاسر" الذي أسس المملكة البابلية الثانية أو الدولة الكلدانية, وبذلك قضي على الإمبراطورية الأشورية, ثالث الإمبراطوريات السامية التي أسست في بلاد النهرين.

5/المرحلة الكلدانية:

انتهت الدولة الأشورية عام 612 ق.م بسقوط عاصمتها نينوى على أيدي الفرس الميديين والقبائل الكلدانية في بابل، وبسقوط نينوى ينتهي دور الأشوريين السياسي على مسرح الشرق الأدنى القديم وينتقل مركز الثقل والقوة ثانية إلى بابل على عهد الكلدانيين.

ويرجح أن الكلدانيين كانوا فرعا من الأراميين، استوطنوا جنوب بلاد النهرين منذ النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد , كما يرجع علماء الآثار أن وطنهم الأصلي يعود إلى شواطئ الخليج العربي في جنوبي العراق, حيث أسست هناك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو ربما قبل ذلك سلالة الأمراء التي عرفت عند المؤرخين بسلالة القطر البحري أو سلالة بابل الثانية التي كان جزء منها من بقايا السومريين .

وقد تمكن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم ونفوذهم على سواحل الخليج العربي وأكثر المدن السومرية والأكادية في جنوب العراق بعد أن كان الجنس السومري يتلاشى في الجنس السامي الأكادي والبابلي[40].

وكان يحكم بابل في حوالي عام 626 ق.م الأمير الكلداني "نابو بولاسر"(626-605) وقد تزعم الثورة ضد الأشوريين ولم تتمكن القوات الأشورية الموجودة في نيبور من هزيمته, فأعلن نفسه ملكا على بابل ومؤسسا للأسرة الحادية عشرة البابلية وهي التي تعرف باسم "الأسرة البابلية الأخيرة" أو "المملكة الكلدانية"، ولعل من أهم الأحداث السياسية في عهد "نابو بولاسر" بعد تخلصه من أشور,هي تلك الحملة التي أرسلها بقيادة ابنه "نبوخذ نصر" لاسترجاع سورية وفلسطين من النفوذ المصري حتى يبقى طريقهم إلى البحر مفتوحا.

وقد لعبت أسرة بابل المذكورة دورا مهما في تاريخ الشرق الأدنى في القرن السادس قبل الميلاد, فقد استولت على جميع الدويلات في سورية وفي فلسطين وبلغت أوج ازدهارها في عهد "نبوخذ نصر" خليفة "نابو بولاسر".

ويعد نبوخذ نصر من أبرز ملوك العهد الكلداني, وقد دام حكمه ثلاثا وأربعين سنة(605-562ق.م) وهو ما يمثل قرابة نصف حكم هذه الأسرة, وإن أهم ما نورده حول حملاته الحربية, الحملتان اللتان قام بهما على مملكة "يهوذا" والقضاء عليها، وسبي اليهود إلى بلاد بابل، فقد وجه حملته الأولى سنة 597 ق.م على يهوذا فاستولى على أورشليم وسبى اليهود إلى بلاد بابل ومعهم الملك"يهو ياكين" وأهل بيته، ثم تبعه السبي البابلي الثاني سنة 586 ق.م, إذ جاء نبوخذ نصر هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية واحتل أورشليم فخربها, وأحرق بيت الملك وكل بيوت الأعيان وقد وصل عدد الأسرى إلى حوالي5000 مابين السبي الأول والثاني[41].

وبعد وفاة نبوخذ نصر سنة 562 ق.م خلفه على عرش بابل ملوك ضعفاء حتى وقعت بابل لقمة سائغة بيد (كورش-Cyrus)الإخميني, فسمح كورش لمن يشاء من اليهود بعد احتلاله لبابل بالعودة إلى فلسطين، فعاد بعضهم وقد آثر البعض الآخر البقاء.

وتمثل التوراة نبوخذ نصر في صورة المحاربين, ولكنه اكتسب مجدا خالدا في بلاده بفضل أعماله السلمية قبل كل شيء, فقد زاد المعابد والقنوات والطرق أضعافا مضاعفة, واستعادت بابل في عهده رونقها القديم، وتسجل الحوليات البابلية(التي نشرها وايزمان-D.J.Wisemen عام1956)أعماله الحربية, كما يروي"اكسونوفون(Xenophon), وهيرودوت بناءه التحصينات الهائلة, ومنها سور عظيم صارت به مدينة بابل منيعة ضد كل الغزاة.

وقد أخذ الكلدانيون بالحضارة البابلية القديمة كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين الذين نزحوا إلى سهل بابل, وأضافوا إليها كثيرا من عندهم فتحسنت الفنون والصناعات وعنوا بالدين والآداب عناية كبيرة، وقطعوا أشواطا واسعة في علم الفلك, وظهر بين الكلدانيين حكماء وعلماء في مختلف الفنون والمعارف كالمهن التعليمية والعلوم الرياضية والكهنوتية.

كما برع الكلدانيون في فن التطريز, حتى لقد كانوا يصورون على النسيج الصور التي رسموها على جدران قصورهم, وعلى الرغم من تقليد الكلدانيين في أشياء كثيرة إلا أنهم فاقوا أسلافهم في فخامة

الأبنية وأبهة الدولة, وأصبحت بابل في عصر نبوخذ نصر أعظم مدينة في المعمورة, وكانت بابل نبوخذ نصر هذه هي التي أدهشت أب التاريخ هيرودوت اليوناني بعجائبها وفخامتها[42].

4- مظاهر حضارة بلاد النهرين:

أ- الدين:

بدأت التصورات الدينية تتكون في بلاد ما بين النهرين في عصر ما قبل الأسرات، العصر الحجري الحديث (النيوليتي). وقد حافظ قدماء العراقيين حتى في عهودهم التاريخية على معتقدات حيوية يرقى تاريخها إلى عصر المجتمع البدائي وفيها عبادة ارواح خيرة أو خبيثة تحكم الظواهر الطبيعية وترسل الأمراض والموت وتساعد في عملهم وفي حياتهم. ومن بين المكتشفات الأثرية الهامة التي عثرت عليها مديرية الأثار العراقية عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ في تل حسونة : دمى طينية بهيئات مختلفة منها صور حيوانية كانت تستعمل في العبادة والتبرك .

والديانة في بلاد الرافدين، كما تظهر في نصوص الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد ، تركيب من عناصر سومرية وسامية . وقد تطورت المفاهيم الدينية تحت تأثير التحولات الاقتصادية . الاجتماعية والتبدلات السياسية. فمع الانتقال من مرحلة الصيد وجمع القوت إلى مزاولة الزراعة وتدجين الحيوان (تربية الماشية) تطورت الديانة من الطوطمية فالحيوية إلى عبادة القوى الطبيعية ومن ثم إلى مبدأ التفريد أي خص إله ما بالتعظيم والعبادة وجعله سيد الآلهة. وصارت الآلهة بشراً تصور على شكل إنسان بعد أن كانت في السابق تصور على شكل حيوان[43].

ويعتبر الدين المصدر الأساسي الذي يستند إليه الحكام في إصدار التشريعات. وتشترك معظم الشرائع القديمة في الاعتقاد بأنها مستمدة من الآلهة، وقد كان رجال الدين إذا ترجموا عن رأي الآلهة، أو أعلنوا عن رغبتها بأمر أو نهي لزم الناس طاعته وتنفيذه خوفا من انتقام الآلهة.

ومن هنا أضحى للقاعدة القانونية المتمثلة بالنهي والتحريم وازع، وأضحت قوة رجال الدين مساوية لقوة الدولة، فالفكر الديني لم يكن من خلق السحرة والكهان وإنما كان من خلق نظرة الإنسان بما فيها

من تساؤل لا ينقطع وخوف وأمل،وقد ورث الكاهن عن الساحر الألاعيب التي تلقي في روع الناس صلته بالآلهة، وزاد فيها الكثير من الخرافات والأساطير ليمسك بزمام الوازع ويستمد منه القوة والسلطان[44].

وقد كانت الصورة الأولى التي برزت فيها فكرة القانون تتمثل في صورة حكم إلهي، يستلهمه الكاهن من الآلهة، وكان الكاهن في نظر الجماعات البدائية يمتاز بقدرته على الاتصال بالآلهة والتعرف على مشيئتهم، وتلقي أحكامهم، فإذا نطق بالحكم فإنه يعبر به عن إرادة الآلهة ويعلن عما تشاء[45].

والآلهة في نظر العراقيين القدامى هي ينبوع العدالة ومصدر القانون، والملوك ممثلوها على الأرض، وأداتها لنشر العدالة وتطبيق القانون، انتخبتهم الآلهة من بين جموع البشر وأوحت إليهم برغباتها وإرادتها[46].

والحقيقة أن الحكام والملوك، كانوا يستمدون السلطة من الآلهة حتى أن شارات الحكم كانت موجودة عند الآلهة وهي التي تمنحها لمن تختار من البشر. وكانت في نظر سكان بلاد النهرين مصدر القانون، ويعد الإله شمش على وجه التحديد، الإله المسؤول عن كل ما يتعلق بالقانون والعدل والقضاء وهو الذي يستمد منه الملوك ما يشرّعون من قوانين.

وقد كان الكهنة وهم رجال الدين يستطلعون رأي الآلهة بطرق تختلف باختلاف الشعوب، ولكنها تنتهي جميعا إلى فكرة واحدة وهي أن إرادة الآلهة هي صاحبة الشأن في تدبير الأمور وتسييرها، ويتعرفون على هذه الإرادة بواسطة الشياطين التي تترصد أخبار السماء، أو بالنظر في الأجسام الشفافة كالمرايا أو الماء، أو بالنظر في قلوب الحيوانات وأكبادها، أو بطرق الحصى والنوى[47].

وقد كانت الشعوب تحتكم إلى الآلهة إذا أعوزها دليل يدين المتهم، فكانت تلجأ إلى طريقة المحنة (ordalies) وذلك بإلقاء المتهم في الماء أو في النار، فإذا نجا فهذا دليل على أن الآلهة قد قضت ببراءته، وإذا غرق أو التهمته النار فهذا دليل على أنه مذنب وأن الآلهة قد قضت بأمرها فيه. وتقوم هذه الطريقة على الإيمان بأن الآلهة تقف في جانب صاحب الحق[48].

إن هذه الاعتقادات كانت سائدة عند قدماء العراقيين، وعند معظم الأقوام السامية الأخرى، وذلك في نظرتها إلى نظام الحكم، واعتقادها بأن الملوك هم الممثلين للآلهة، وأنهم يقومون بمهمتهم المقدسة في نشر العدالة وتطبيق القانون.

ب- نظام الحكم:

اعتقد العراقيون القدامى بأن الآلهة هي التي تختار الملك وتقدم له وظائفه ومنذ البداية هو ملك البلاد. وكان الملك (ربما في غالبية المدن السومرية) ينتخب من قبل المجلسين الحاكمين في الدويلة، ونقرأ في نص سومري "اجتمع أهل كيش واختاروا للملكية ابخور كيش من أهالي كيش"[49].

وافتخر بعض الملوك باختيار الآلهة لهم من بين رجال مدينتهم، فأنتيمينا وأوروكاجينا، وجوديا أخبرونا بأن يد الإله قد اختارتهم من بين 3600 و 36ألف 226 ألف رجل من رجال مدينتهم لكش على التوالي.

يوضح هذا بجلاء مبدأ الاختيار، ومن جهة أخرى اعتبر الكثير من الملوك أنفسهم أبناء الآلهة، فذكر جوديا بأنه ابن الآلهة نينا و نينسون الخ، وأكد أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة بأنه ابن الإلهة نينسون التي ولدته بناء على أوامر إله القمر. وقال لبت عشتار ملك ايسن بأنه ابن الإله انليل، كما ادعى أشور بانيبال في مناسبات عدة بأن أمه هي الإلهة ننليل (زوجة الإله أشور) وسيدة نينوى[50].

وقد يقع اختيار الآلهة على شخص مغمور تتلمس فيه الكفاءة والقدرة برأيهم فتأخذ بيده إلى مقاليد المُلك كما نقرأ في أسطورة سرجون الأكادي، التي ادَّعى فيها كونه من أصل وضيع، نشأ بستانيا ورعته عشتار ووعدته بالملك الذي أعطته له بالنهاية.

وإن ابتداعه القصة واضح من النصوص التي تذكر صلات قرباه وحياته الأولى ولكي يسبغ الشرعية على تسلمه السلطة أطلق على نفسه الاسم (شروكين) معناه (الملك الشرعي) وليست هناك أية إشارة الآن إلى اسمه الحقيقي.

ولقد ذهب بعض الملوك إلى درجة اعتبروا فيها أنفسهم من المقدسين، بل إن بعضهم ألَّه نفسه بالرَّغم من أن ذلك لا يعتبر قاعدة عامة في تاريخ العراق القديم بل استثناء[51]، ففي الوقت الذي لم يُعبد خلاله أي ملك في العصر السومري القديم، على حسب معلوماتنا الحالية، يظهر أن نرام سين آخر ملك قوي للسلالة الأكادية قد اعتُبر إلها وعُبد في حياته، وتصفه المصادر بل وتضع أمام اسمه إشارة الإله وترسمه المنحوتات وعلى رأسه الخوذة بالقرنين (رمز الأولوهية)[52].

ومن دراسة النصوص المسمارية المتوفرة وتحليلها يبدو أن نظام الحكم في مدن جنوب بلاد النهرين منذ النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد كان نظاما أوتوقراطيا تتركز السلطة فيه بيد الحاكم أو الملك الذي كان يسعى دوما لزيادة سلطانه وتوسيع نفوذه. ويظهر أن الاتجاه العام في تطور نظام الحكم كان نحو المركزية والدكتاتورية في الحكم حتى تبلور هذا النظام الدكتاتوري في عهد سلالة أور الثالثة وما أعقبها من ممالك عظمى كمملكة حمورابي.

وإلى جانب هذا الحكم الأوتوقراطي، والنظام الدكتاتوري الذي تميزت به الممالك التي حكمت في أواخر الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد، فقد لاحظ المتتبعون لتاريخ بلاد النهرين وجود بعض المظاهر الديمقراطية في البلاد التي يظن أنها بقايا أنظمة ديمقراطية كانت تسود البلاد في عهود سابقة، كوجود مجالس المدن التي كانت تضم عددا كبيرا من سكان المدينة كانت مهمتها في العهد البابلي القديم مثلا، النظر في بعض القضايا القانونية التي تعرض عليها من قبل حاكم المدينة، أو تحال إليها من قبل الملك نفسه[53].

ففي المراحل الأولى لظاهرة الملكية، كانت المجالس تقوم بدور التعيين لهؤلاء الملوك، أما فيما بعد لم يعد للمجالس أي دور في ذلك التعيين، إذ أصبح الملوك يعتبرون أنفسهم معينين من قبل الآلهة مباشرة، وهكذا ظهرت السلالات الحاكمة في مدينة " أور" في حدود 2800 ق.م. وبقيت هذه الظاهرة الملكية مستمرة في كل المراحل اللاحقة، وفي جميع المدن التي سيطرت على تاريخ بلاد النهرين. أما تلك المجالس فبقي دورها يتمثل فيما أشرنا إليه آنفا في حل بعض القضايا القانونية التي تحال عليها.

وهناك مقارنة ومقاربة بين الآلهة والبشر نجدها في اعتقاد السومريين بأن الكون هو على هيئة مملكة تحكم فيه مجموعة من الآلهة تقوم بتنظيم شؤون الكون والحياة على الأرض، وكان للآلهة مجلس يترأسه إله، ويجتمع المجلس كلما دعت الحاجة للمناقشة في القضايا المهمة[54]. وهذا المجلس، وفق ما جاء في الأساطير نظام كامل التركيب، يتألف من عدد من الآلهة ولكل إله عمل خاص به، وممارسة السلطة من قبل الآلهة كانت تسير حسب النظام الهرمي وحسب تقسيم الأعمال[55]. وقد ظل هذا الاعتقاد سائدا ينتقل من جيل إلى جيل، إلى أواخر مراحل حضارة بلاد النهرين والدليل على ذلك هو تلك النصوص المسمارية الكثيرة التي وصلتنا من مختلف هذه المراحل التاريخية، التي تشير إلى هذا النظام الخاص بالآلهة.

وإضافة إلى هذا فإن نظرة خاطفة إلى ما ورد في القصص والأساطير والملاحم العراقية القديمة تشير إلى معرفة القوم بالنظم الديمقراطية، واعتبارها المثل الأعلى الذي اتبعته الآلهة في تنظيم حياتها، وكيفية إدارتها لشؤون الكون.

ولذلك قام أحد الباحثين البارزين والمختصين في دراسة بلاد النهرين وهو جاكوبسون بتفسير التناقض بين الحكم الدكتاتوري الذي تميزت به ممالك العراق القديمة في الألف الثاني قبل الميلاد، وبين وجود بعض المظاهر الديمقراطية في البلاد، وذلك من خلال دراسة الأساطير الدينية والملاحم والقصص السومرية والأكادية ليعرف من خلالها واقع ما كان عليه مجتمع بلاد النهرين في الألف الثالث والمراحل التي سبقته[56].

وإن ما جاء في تلك الأساطير والملاحم والقصص، من مبادئ ومُثل وأنظمة لا شك وأنه يعكس واقعا كان موجودا في البلاد قبل فترة من الزمن، خاصة وأن الديانة في بلاد النهرين قد اتصفت بصفة التشبيه، أي التشبيه بالبشر، في هيئتها العامة وحياتها وحواسها، وعلاقاتها الاجتماعية. وأن ما ينسب إلى الآلهة من صفات لابد وله ما يقابله من صفات البشر، مثل الملوك في مسؤوليتهم عن رعاياهم وأقاليمهم[57].

وتبعا لذلك فقد صورت الآلهة بأنها تعيش، كما كان البشر يعيشون في مجتمع تحكمه قوانين وضوابط معينة، وعلى رأس هذا المجتمع يقف رئيس الآلهة ويساعده في إدارة شؤون مجمع الآلهة عدد من الآلهة الكبار، كما كان للآلهة مجلس أعلى تجتمع فيه لتقرير المصائر، واتخاذ القرارات المهمة التي تهم الآلهة والبشر.

ومن هذا المنطلق، ولكي يتمكن الملوك من النفوذ إلى رغبات الآلهة وإرادتها فقد استعانوا برجال الدين من الكهنة، ومفسري الأحلام، وقارئي الفال، ليطلعوا على رغبات الآلهة وخاصة في إصدار القوانين ونشر العدالة، وهذه الصفة دليل على أن الملوك لم تكن لديهم السلطة المطلقة، بل كان عليهم أن يرجعوا إلى الآلهة في أعمالهم المهمة.

وإن الطابع المقدس للسلطة يتمثل بالعلاقة التي يفترض قيامها ما بين السلطة الإلهية والسلطة البشرية، وعلى هذا الأساس فإنه يوجد هناك طرفان هما: الإله من جهة، والملك من جهة أخرى، والطابع المقدس للسلطة السياسية البشرية يتحقق من خلال هذين الطرفين، ومن ثمَّ التواصل بينهما[58]. ولاعتقاد سكان بلاد النهرين بأن الآلهة هي مصدر الحق والقانون والعدالة، وأن ما يصدره الملوك والحكام ما هو إلا وحي مقدس منها، وتنفيذ لرغباتها، لذلك لقي احتراما كبيرا من كل أفراد المجتمع وفئاته.

ت- الحياة الاقتصادية:

تعد الحياة الاقتصادية في بلاد النهرين من الجوانب الحضارية المهمة التي لم تحظ بدراسات تفصيلية من طرف الباحثين والمؤرخين، كتلك التي حظيت بها نوعا ما الحياة الاجتماعية، ورغم أن الجزء الأعظم من النصوص المسمارية المكتشفة حتى الآن ذات طابع اقتصادي، إلا أنهم لم يقوموا بدراسات كبيرة تعنى بالجانب الاقتصادي وتتناسب وأهمية النصوص المسمارية المكتشفة.

وقد أتاح التحليل الدقيق للنصوص المالية والقانونية السبيل لبناء تصور أفضل من السابق للتاريخ الاقتصادي في بلاد النهرين، بداية من وثائق مدينة أوروك التي أبرزت أهمية دور المعابد في مسيرة اقتصاد

بلاد النهرين، ووصولا إلى كل القوانين المدونة بداية من إصلاحات أوروكاجينا، وحتى القوانين البابلية الحديثة وذلك من خلال الوثائق اليومية على اختلاف أنواعها، كعقود البيع والشراء والرهن، والقرض، والإيجار، والمشاركة ، والمزارعة، والحصاد، ... وغيرها. وسنحاول في هذه المحاضرة أن نتطرق إلى أهم النشاطات الاقتصادية التي ميّزت بلاد النهرين:

ت1- <u>الزراعة</u>:

من المعروف أن سكان بلاد النهرين قد اشتهروا بالزراعة، وأنهم اهتدوا إليها في زمن مبكر يعود ربما إلى حدود الألف التاسعة قبل الميلاد، وتدلنا الآثار التاريخية أنهم اصطنعوا القنوات واستفادوا من أساليب الري الاصطناعي والسيطرة على الفيضانات لإرواء السهول البعيدة عن مواقع الأنهار.

وقد كان ذلك بعد أن استقر الإنسان في القسم الجنوبي من بلاد النهرين، وبدأ يتعلم وسائل الري الاصطناعية، ووسع من أراضيه الزراعية، وأصبح ينتج أكثر من حاجته، وبدأ يقايضه مع أخيه الإنسان، وهكذا كانت بوادر التجارة، وطلائع التخصص في العمل.

وتكشف لنا الوثائق في جملتها عن الحياة الاقتصادية في بلاد النهرين، وخاصة في مجال الزراعة التي كانت تمثل العمل الأساسي للسكان، وكانت الأرض بالغة الخصب ما دامت تسقيها شبكة محكمة من القنوات، ومن ثم كان الملك والشعب يوجهان أكبر عنايتهما إلى ضبط المياه وتوزيعها[59]. فصيانة نظام الري شرط أساسي لبقاء الجماعة بأكملها، وقد كانت السخرة العامة لصيانة السدود والقنوات جزءا من واجبات الفلاح، كما كان استغلال حقوله الخاصة جزءا من واجبه، وكانت عملياته كلها تقع تحت إشراف السلطات العامة.

وفي أرض العراق نمت مختلف أنواع الغلال والمحاصيل الحقلية، منها الحبوب على اختلافها كالشعير والقمح والسمسم، ومنها الذرى والعدس والحمص ومنها الأشجار المثمرة كالتين والزيتون والكروم والرمان والتفاح وغيرها، يضاف إليها أشجار النخيل ذات الشهرة الواسعة والفائدة الجمة، إضافة إلى

ذلك بدأت زراعة القطن "أشجار الصوف" كما سماها الأشوريون منذ الألف الأول قبل الميلاد كما ذكرت أنواع الخضروات، ولا سيما البصل والثوم والخيار وغيرها[60].

ومن خلال دراسة تاريخ بلاد النهرين يتبين أن الأراضي الواسعة كانت في حوزة المعبد والقصر، أو بيد الإقطاعيين الكبار(الملكية الخاصة) [61]الذين كانوا يؤجرونها إلى المقربين، لذلك ونظرا لمتطلبات دفع المكوس والضرائب، فقد أوجبت الحاجة تحديد الحقول والملكيات الأخرى، ولهذه الغاية وجد الكتّاب الذين كانوا يقومون بتحديد هذه الحقول من أجل فرض الضريبة.

وقد تعددت أساليب استثمار أملاك المعابد والقصر، منها أسلوب الإيجار، حيث فرض على المستأجر أن يدفع جزءا من إنتاج الأرض، ويأخذ على عاتقه تكاليف الري وصعوباته، والنمط الثاني قام على كولونات (Colon) عمل عليها الفلاحون مقابل حصة من الإنتاج، وتكفل المالك بشراء البذور والآلات والحيوانات وغيرها والنمط الثالث طبق على الأراضي التي كان الملك يقتطعها لكبار موظفي الدولة وهي لا تخضع للحجز ولا تورث، ويقوم الملك بتقديم الحيوانات والآلات، وصيانة القنوات، وشق الطرق، وله حق المرعى ودعوة الرجال إلى عمل السخرة[62].

كما وجد في بابل بطاقات خاصة لتسليم غلال الأرض، صادرة عن مخازن الحبوب التابعة للدولة، سجل عليها العمليات الزراعية، وكانت تمثل شكلا من اقتصاد شبه مثير للدهشة أساسه ثلاثة عناصر: الشعير والزيت والصوف، وقد احتفظ الشعير بدوره في عمليات التبادل العيني على الرغم من انتشار التداول بالعملات من الفضة أو معادن أخرى في كل أرجاء مملكة بابل، أما الزيت المستخرج من السمسم فقد استخدم في الطعام والإنارة والعناية بالجسم، وفي ميدان الطب والاحتفالات الدينية وكان الصوف المادة الأولية لصنع الأنسجة.

ومن جهة أخرى فقد كان لممارسة الرعاة الرحل من كبار المربين نتائج كبيرة ومضنية، ومع ذلك فهي طبيعية، لأن ترحالهم مستمر لا يتوقف لكونه محور ونقطة مبادلات موجهة، فهم الذين ساهموا بخلق

سياسة الاقتصاد التبادلي (المقايضة) الذي أصبح قاعدة أساسية في حضارة بلاد النهرين، وكان فيما بعد محصلة لتقنية الإنتاج الحديثة التي وجدت سبيلا لتصريف ومقايضة مخزونها الفائض.

كما كانت طريقة الحياة الأشورية منذ البداية وحتى النهاية تعتمد على النشاط الزراعي (الفلاحة وتربية الحيوان)، وقد اعترف الملوك الأشوريون، حتى أولئك من ذوي السمعة الحربية المخيفة، بأهمية الزراعة، وقد تحدث أكثر من واحد منهم عن منجزاته الرئيسية المتمثلة بتطوير الفلاحة، ومصادر الحيوان، لذا يذكر "تجلاتبليزر"[63] الأول (1115-1077 ق.م): "لقد جعلت المحاريث تعمل في جميع أرجاء بلاد أشور، وبذلك كدست أكداسا من الحبوب أكثر من أي أسلافي، لقد كونت قطعانا من الخيول والماشية والحمير من الغنائم التي أخذتها بمساعدة سيدي الإله أشور من الأراضي التي بسطت سلطتي عليها".

ولم تكن ملكية الأرض في بلاد أشور حكرا على طبقة معينة، كما لم يوجد فيها ملكيات كبيرة، وقد عاش الفلاحون على أرضهم باكتفاء ذاتي، وليس هناك ما يدل على أن هذه الطبقة كانت مسحوقة بنظام ضريبي جائر، أو بأعمال سخرة قاسية وبشكل عام كانت شروط حياة الريفيين مرضية[64].

ت2- **الصناعة:**

إن بدايات الصناعة البسيطة في بلاد النهرين، كانت في العهود الحجرية عندما صنع الإنسان الآلات والأدوات الحجرية كالمكاشط والسكاكين والفؤوس. كما عرف النار والسيطرة عليها وطهي الطعام، وبناء الأكواخ، واستخدام الملابس، فكانت هذه أهم السمات الحضارية لإنسان العصر الحجري القديم والوسيط[65].

وفي العصر الحجري الحديث تطورت هذه الصناعات البسيطة، وضمت صناعة الآلات والأدوات الزراعية من الحجر والمعدن والخشب, وذلك بفضل توفر المادة الأولية التي جلبها التجار من مناطق عديدة في شمال، وشمال شرق بلاد النهرين.

كما عرف الإنسان صناعة الفخار والطوب منذ زمن بعيد, قبل معرفته للزراعة واستئناس الحيوان، فبعد أن استخدم الإنسان الأحجار في صناعة الأدوات، استخدم مواد مصنعة من الطين هي الأواني الفخارية التي تستخدم في الطهي وغيره[66]. و ظهرت صناعة السلال، وتعلم الإنسان صناعة الغزل والحياكة، ومع بداية العصور التاريخية برع العراقيون القدامى في صناعة التماثيل والنصب والمسلات، ونحت الألواح الحجرية الجدارية، والأختام الأسطوانية.

وكان أوائل المتخصصين في القرى الزراعية الأولى في شمال العراق قد أولوا عمليات التصنيع دورا مهما ساهم بالنتيجة في الانتقال من الحياة القروية إلى مرحلة المدنية، وكان شيوع استخدام المعادن هو الذي مهد لتشخيص مرحلة زمنية متطورة حضاريا بشكل واضح، سميت بالعصر المعدني[67]. وكانت أولى الأدوات المصنعة هي التي تغطي احتياجات الإنسان في مجال الزراعة خاصة، وكذلك احتياجاته من الحلي.

وكانت أولى الصناعات من النحاس ومن البرونز الذي صنعت منه الأسلحة وقد لعب التجار الأشوريون دورا مهما، وهو دور الوسيط في جلب هذه المعادن من الشمال كأفغانستان والأناضول وغيرها[68].

ولقد صاحب وعاصر شيوع استخدام المعادن، اهتداء الإنسان إلى التوسع في مجال الزراعة بفعل استخدام وسائل الري، إضافة إلى نشوء المدن والمؤسسات المدنية والعمارة المتخصصة، ثم شيوع استخدام الدولاب في الصناعة، والعجلة، وما صاحب ذلك من تبادل للمعارف والتجارب والأفكار.

وفي العصور القديمة لم تكن الصناعات اليدوية مقصورة على جماعات وأسر معينة، ثم ما لبثت أن أصبحت صناعات متخصصة، فاحتفظت كل جماعة بأسرار حرفتها، وأصبح تعلم الحرفة لا يتم إلا بالتدريب الطويل على أيدي المهرة من الحرفيين، فكانت الحرفة تنتقل من الأب إلى ابنه[69]. والأسماء الدالة على الحرف الرئيسية كانت معروفة منذ بداية الحضارة العراقية في عصورها التاريخية، ومن هذه الحرف: الحدّاد والنحّاس والمعروف بالسومرية تحت تسمية "سمُك" "simug" والنجار، ويلفظ هذا

الأخير باللفظة نفسها بالعربية, إضافة إلى الفخار والحائك[70].. فتعددت المهن، وكثر الصناع، ووجدت ورشات صناعية خاصة، وورشات ملحقة بالمعابد والقصور.

وكان أصحاب الحرف ينتظمون، كما هم اليوم، فيما يشبه النقابات المهنية، ويرأس كل حرفة أكثر الصناع شهرة ونفوذا، وكان رئيس الحرفة يقوم بفض المنازعات التي قد تنشب بين أفراد الحرفة الواحدة، وربما قام بدور الوسيط بين أفراد الحرفة والسلطة الحاكمة[71].

ت3- التجارة:

لقد احتلت التجارة أهمية كبيرة في حياة العراقيين القدماء، وفي مجمل نشاطاتهم الاقتصادية، وتحول الاهتمام بالتجارة من الطابع الفردي إلى الطابع الجماعي المنظم الذي تشرف عليه الدولة، ويلقى رعاية واهتمام الزعماء والملوك الذين أبدوا عنايتهم بالتجارة إلى الحد الذي دفعهم لإرسال حملات عسكرية لضمان سلامة طرق التجارة وتهيئة الظروف الملائمة لتوفير المواد الأولية التي كانت تفتقر إليها بلاد النهرين.

وقد أدت أسباب كثيرة إلى ازدهار التجارة في بلاد النهرين، ولعل من أبرزها داخليا هو التطور الذي عرفه النشاط الزراعي وتوفر المحاصيل التي كانت تمثل مادة هامة للتبادل التجاري، ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك أسباب أخرى ساعدت على تطور التجارة وازدهارها، وتمثلت في عدم توفر المواد الأولية المتمثلة في المعادن والحجارة والأخشاب، التي كانت تعد مواد ضرورية لمجتمعات الصيد والزراعة، بالإضافة إلى تنشيط الصناعات الحرفية التي كانت توفر أدوات الإنتاج الضرورية لإحداث التكامل القطاعي بين الزراعة والصناعة، وقد كانت التجارة هي التي توفر تلك المواد الأولية.

وبالرجوع إلى التطور التاريخي لهذا القطاع المهم في بلاد النهرين، فقد كان في البداية يخضع إلى سيطرة المعابد في عهد السومريين، إلا أنه وفي نحو أواخر الألف الثالث قبل الميلاد زالت تلكم السيطرة تحت وطأة تزايد نفوذ التجار. وإذا كانت الصفقات التجارية في البداية تتميز بصغر حجمها، فإن هذه الصفقات بدأت تكبر بتطور التجارة، وتطور وسائل النقل، وبتقدم الزراعة والصناعة، وقد صاحب

ذلك اتساع مدى التجارة الخارجية الجغرافي، حيث بدأ التجار بالانتقال إلى الأقاليم المجاورة، والأقاليم البعيدة بغرض عقد الصفقات التجارية[72]. لدرجة أن بعضهم أقام هناك في المناطق البعيدة وكوّن محطات تجارية مثلما وجد في شمال أشور وبالضبط في منطقة الأناضول[73].

وكنتيجة لرواج التجارة في بلاد النهرين، ازدهرت الأسواق التجارية في العديد من المدن كبابل وأشور ونينوى وأكاد، وكانت هناك مواقع لعرض السلع وأخرى للبيع والمبادلة، وقد نظمت مواقع هذه الأسواق، ووضعت لها القواعد والأصول التي رسخت بمرور الوقت، ليس فقط في بلاد النهرين، وإنما في الأقطار الخارجية. وكان للشهرة التي تميزت بها بعض هذه الأسواق أن مداخل المدن الرئيسية وبواباتها وساحاتها كانت تسمى بأسماء هذه الأسواق ومنها "باب التسليم" أو "باب البيع " في مدينة نينوى[74].

وقد احتلت بلاد النهرين موقعا استراتيجيا مهما يتوسط بلدان البحر المتوسط ذات الحضارات العريقة، وبلدان الخليج العربي وما وراءها في بلدان الشرق الأقصى، فهو يقع بين بحرين عظيمين هما: البحر الأعلى (أي البحر المتوسط) والبحر الأسفل (أي الخليج العربي) كما كان يطلق عليهما العراقيون القدماء أنفسهم وقد كان لهذا الموقع التجاري المهم أثره في نشاط الحياة الاقتصادية، ونشاط الاتصال الدائم بين سكان العراق وشعوب البلدان المجاورة.

ونظرا لتطور التجارة وازدهارها فقد بدأ تحديد الأوزان الرسمية، وكانت تصدر هذه الأوزان دائرة خاصة تقوم بضبط الأوزان والمكاييل[75]، وينقش عليها الوزن القياسي، وخضعت هذه الموازين لرقابة السلطة في المجتمع، وعندما عرفت المعادن النفيسة (الذهب والفضة) اتسع اللجوء إليها، وانتشرت التجارة من أجل استيرادها للاستعمالات الداخلية، أو من أجل العمل على تصديرها، أو التوسط في تصديرها إلى المدن والأقاليم المجاورة.

وقد استخدمت الفضة كواسطة للتبادل فكانت بمثابة النقود، وهي وسيلة دفع محددة الوزن والقيمة[76]، وقد استخدمت الفضة كأساس للمدفوعات باعتبارها أساس التبادل.

ونظرا لأن التجارة كانت وراء ضروريات تصريف الإنتاج المحلي، وما تحتاجه البلاد من المواد الأولية، فقد شهدت تطورا بارزا، والدليل على ذلك أن هناك الكثير من الوثائق والعقود التجارية المكتشفة. كما أن الدولة خصصت لها بعض القوانين القديمة وحددت لها الإطار القانوني التشريعي[77]، مثل قانون حمورابي الذي أفرد لها الكثير من مواد قانونه .

المحور الرابع: حضارة فارس وعيلام

1- التسمية:

إن تعبير (فارس) أول مَنْ أطلقه هم الإغريق؛ واستمدَّ هذا الاسم نسبة لإقليم (بارسا) في الجزء الجنوبي الغربي من الهضبة التي تشكل معظم إقليم إيران الجغرافي، وتم تعديل اللفظ ليكون (برسيس) وأخذه العرب وجعلوه (فارس). وفارس أحد أقاليم إيران؛ وهو من قبيل إطلاق الجزء على الكل. وهناك تسميات أخرى اشتقت من مفردة (آري) التي جاءت من الميديين والفرس باعتبارهما من أصل واحد، وهذه التسميات هي: (إيرانشهر) أي إقليم إيران، وهي تسمية سياسية، وإيران زمين) أي أرض إيران، وهي تسمية جغرافية.

ولقد ظل تعبيري "فارس" و "إيران" مستخدمين لعدة قرون مع بعضهما، فكان يطلق عليها أهل البلد "إيران" بينما يطلق عليها الغربيون المتأثرون بشكل رئيسي باليونان "فارس"، وظل الوضع على ذلك حتى عام 1953م حينما طلبت الحكومة الإيرانية من الدول الأجنبية مراعاة للتنسيق والتوحيد أن يطلق على البلاد رسمياً اسم "إيران" فظفرت هذه التسمية ذات الدلالة الصحيحة بالاستعمال العام[78].

2- موقع وجغرافية إيران "فارس":

يتكون القسم الأكبر من إيران من منطقة واسعة تعرف باسم "هضبة إيران"[79] وهي تبدو كمثلث محصور بين منخفضين هما : الخليج العربي في الجنوب وبحر قزوين في الشمال، وهي توصل ما بين وسط آسيا وغربها، كما أنها بمثابة جسر إلى آسيا الصغرى وإلى قارة أوروبا فيما وراءها، ويوضح ذلك أهمية العوامل الجغرافية للهضبة الإيرانية في قيامها بدورها التاريخي الذي قدر لها أن تقوم به على مدار آلاف من السنين في التاريخ الإنساني. ويحيط بالهضبة الإيرانية سلاسل من الجبال الشاهقة من كل جانب ويبلغ متوسط ارتفاع إيران فوق مستوى سطح البحر حوالي 3000 قدم.

وعلى الرغم من أن هضبة إيران تشكل القسم الأكبر من دولة إيران؛ فهي تتضمن من الناحية الجيوسياسية معظم دولة أفغانستان الحالية وغرب باكستان الحالية... وهذه الهضبة تطل من الجنوب

على منطقة الخليج العربي، ومن الشمال على بحر قزوين (الخزر سابقاً)، وكان العرب يسمونه ببحر طبرستان أو بحر جرجان؛ كما جاء في مقدمة ابن خلدون وهضبة إيران - بقدر تعلقها بموضوعنا - هي بمثابة جسر بين أواسط آسيا وأوروبا عبر آسيا الصغرى "تركيا الحالية"، كما تشكل جسراً بين آسيا وجزيرة العرب عبر العراق ومنطقة الخليج العربي، وهذه الهضبة قسمت من الناحية الجغرافية إلى أربع مناطق رئيسة هي[80]:

أ- منطقة جبال زاغروس المرتبطة بامتدادها إلى بلاد الرافدين من الجنوب عبر السهول، ومن الشمال عبر الجبال المشتركة ويبلغ امتدادها نحو ألف كيلومتر وعرضها نحو (٢٠٠)كلم، وهي أهم مناطق إيران في تشكيل حراكها الحضاري عبر التاريخ، لوجود طرق المواصلات والزراعة والمياه والسكان فيها.

ب- سلسلة جبال البرز وسهولها المطلة على بحر قزوين ويبلغ عرضها نحو (130) كلم)، وأهم قمة جبل فيها تدعى قمة جبل (دامافاند)، أو جبل اللازورد، وهو أعلى جبال إيران، ويسميه السومريون (بكني).

جـ - المرتفعات الشرقية والجنوبية الشرقية، وتسمى بالمنطقة القاحلة لعدم وجود مؤهلات طبيعية للحياة فيها، وفيها جبال مكران وخراسان ذات المنافذ العديدة، مما كان يشكل سبباً للعبور منها من قِبَل الغزاة لاحتلال إيران لكنها بالمقابل كانت مهداً لبعض أهم السلالات الإيرانية الحاكمة، مثل الفرثيين قديماً والقاجاريين لاحقاً.

د - المنطقة الصحراوية المنخفضة في الوسط، وتقدَّر مساحتها تقريباً بنصف مليون كلم مربع، وتضم أكبر المناطق الصحراوية، وهما صحراء (كافر) وصحراء (لوط)، وهي من الصحاري المنخفضة، حتى يصل هذا الانخفاض إلى (250) قدماً تحت سطح البحر.

ويتضح من هذه الدراسة الجغرافية لسطح إيران أن المناطق التي يمكن أن تتطور عليها الحياة في سطح الهضبة تنحصر في أودية السلاسل الكبرى الرئيسية وفي الواحات والسهول الواسعة مثل سهل خوزستان في الجهة الجنوبية الغربية وهي بلاد السوس القديمة التي تعد من الناحية الجغرافية امتداداً السهل ما بين النهرين الأسفل، لأنها تتكون من الأرض الرسوبية التي كونها نهر كارون وروافده وتعتبر هذه

المنطقة من أقدم المناطق التي استوطنها الإنسان في إيران كما ظهرت فيها البواكير الأولى لفجر حضارته وحينما امتدت الحدود السياسية للإمبراطورية الفارسية إلى الغرب من زاجروس نشأت في هذه المنطقة العاصمة الكبرى (سوسة)[81].

وكان للعوامل الجغرافية تأثيرها الهام في توزيع مناطق الاستقرار البشري على الهضبة، وظهور المدن الكبرى. وظهر ذلك بوضوح على امتداد سلسلتي جبال زاجروس والبرز وبخاصة على حوافهما الداخلية المواجهة للصحراء، فمن المدن التي ظهرت على الطريق التجاري الواقع على امتداد سلاسل البرز ، مدينة أكبتانا وطهران ودمغان ،وهيرات ومن المدن التي نشأت على الطريق الجنوبي أصفهان وباسار جادا وبرسبوليس وشيراز.

3- <u>السكان:</u>

كان سكان ايران الاوائل من الشعوب الآسيانية . ولا نعلم الكثير إلا عن الشعوب الجبلية التي كانت تجاور سكان بلاد النهرين في العصر التاريخي (بعد اختراع الكتابة) ، ومن هذه الشعوب العيلاميون والفوتيون والكاشيون واللولبيون الذين خضعوا لدول بلاد النهرين في عهد ملوكها الاقوياء ، ولكن الغوتيين قضوا على الدولة الاكادية . والكاشيين على الدولة البابلية فيما بعد.

وفي أواخر الالف الثانية قبل الميلاد بدأت أفواج من الهندو - اوروبيين تغزو إيران ، وقد قدم هؤلاء من الشمال والشمال الشرقي من بلادهم الاصلية التي كانت ، على الارجح ، تمتد في المنطقة الواقعة بين نهري الدانوب والاورال في جنوب روسيا . واختلط القادمون الجدد مع السكان الذين سبقوهم وشكلوا شعبين هما الميديون والفرس[82].

4- <u>نظام الحكم السياسي والإداري الفارسي:</u>

كان نظام الحكم في الامبراطورية الفارسية ملكيا وراثيا ، وان كان يصل في بعض الاحيان الى السلطة اشخاص عن طريق الثورة والاغتصاب والدسائس. وكانت الملكية خاصة بأبناء الاسرة الاخمينية ، وهي

واحدة من سبع أسر فارسية يحق لها تولي الحكم ، وزعماء بقية الاسر يشكلون مجلسا استشاريا للملك يقوم بإسداء المشورة له ومساعدته في الحكم .

وفي اول الامر كان باستطاعة الأشراف مقابلة الملك في أي وقت ، ولكن منذ عهد داريوس الاول اصبحت مقابلة الملك صعبة ، واحتجب الملك عن اتباعه فلا يرونه الا في المناسبات ، وله الكلمة الاولى والاخيرة في كل امور المملكة ولا يحق لاحد مراقبته او محاسبته، كما كانت له صفة الملك المحارب، ويحكم باسم الإله الذي اختاره لحكم الارض ، ولكنه لم يؤله نفسه، وإن رأى بعض اتباعه فيه ما يقرب من الإله فقدّسوه . ويجمع الملك بشخصه كافة السلطات، ويمارس سلطة استبدادية مركزية ، ويساعده اكبر موظفيه الذي يقود بنفس الوقت الحرس الملكي، ويدعى شيليارك وهو بمثابة الوزير الأكبر[83].

وكانت بلاد فارس مقسمة بشكل عام، إلى وحدات إدارية مسيطرا عليها من قبل رجال السياسة والإدارة ضمن الإقليم الواحد على سعته وتنوع الأقوام فيه، وكان النظام الإداري الفارسي فعّالاً بعد قيام الامبراطورية التي كانت تمتد على مساحة خمس ملايين كلم مربع في الشرق القديم، وكمثال كان للفرس مجالس جيدة التنظيم، وقد تم تقسيم الامبراطورية إلى ولايات تسمى المرزبانيات وكل مرزبانية يحكمها موظف يسمى المرزبان[84].

وحكام المرزبانيات عاشوا كملوك صغار ولكن الشاهان شاه، الذي حكم الامبراطورية من فارس، كانت له السلطة المُطلقة والنهائية. وقد نظم الملوك القوانين في مختلف أجزاء الامبراطورية، وسيطرت الحكومة المركزية على الجيوش في الولايات. وكان هناك جهاز سري أطلق عليه الإغريق (عيون وآذان الملك)، يُخبر الملك بالأحوال في كل أنحاء الامبراطورية. وتطورت فنون الحرب ومحاصرة المدن بمعدات متفوقة على باقي الاقوام في المنطقة. وكان الجيش الفارسي قويّاً ويمتلك صنوفاً ملكية من الرماة وضاربي السهام الأشداء الذين كانوا يفتحون الطريق نحو النصر في المعارك المختلفة.

وكان التنظيم الإداري للبلاد الواسعة المحتلة أقل ظلما، وعلى عكس الأشوريين، كان الفرس يقنعون بأن يكون الشعور بوجودهم في أدنى الحدود اللازمة لجعل سيادتهم فعّالة، فقد سمحوا للإدارة

المحلية القائمة بأن تكون فاعلة، وقد كان دور حكّام الولاية الإشراف على الإدارة المحلية لا أن يستولوا عليها[85].

5- الديانة الفارسية:

على الرغم من وجود مظاهر الشرك والوثنية لدى الأقوام التى سكنت هضبة إيران بمفهومها الجيوسياسي، أو جاءت مهاجرة إلى هضبة إيران وأقامت فيها كياناتها المختلفة، فهناك شخصية (دينية) خاصة شكلت معالم الفرد والدولة الإيرانية قديماً ، وهي منطلقة من مقولة الملك دارا الأول: «المعبد والعرش في إيران لا يفترقان»، وبالتالي شكلت الشخصية الحضارية الفارسية عموماً ؛ فقد كانت بداية مرحلة الإيمان) الأولى بظهور:

أ - الدين الميتهري: وقد ظهر هذا (الدِّين) في جنوب هضبة إيران التابعة لامتداد جبال زاغروس عند نهر الكرخة، أي في مدينة سوسة العيلامية، وتسمية (الميتهري) جاءت كدلالة على جوهر العقل البشري وعلاقته بضياء الشمس؛ فالربُّ لديهم هو النور الذي يضيء الظلام، ظلام الكون والنفس والعقل. وكان رجال وفقهاء هذا الدين القديم يسمون بالموابذة، وهم في الوقت نفسه الحكام والقضاة. وعليه، فالكون مقسم بين قوتين كبيرتين هما: القدرة والمقدرة) ، وبقدر اتسام الكون (بما فيه الإنسان) بإحدى هاتين القوتين تكون نسبة الخير والشر فيه[86].

ت- الدين المزدي أو المزدكي: وهو الداعي إلى أن يكون النور "ابن الإله" ولأن الصراع مازال قائما بين "أهورا مازدا" و "دروج"، فلا بد من البحث على ما وراء النور والنار إلى القوة الكامنة وراءهما إلى اللامرئي، من خلال اعتلاء هضبة إيران لرؤية الشمس وقبلة الصلاة، وهذا لن يتم إلا بتناول "رحيق وشراب- هامو المقدّس"، ولكي يرى الرب عباده لا بد من إقامة المعابد حتى يراها بنفسه.

ث- الدين الزرادشتي: ومعناه: ذهب الصحراء. لقد عاش زرادشت بين عامي (660 - 583 ق.م) ، في (ميديا)، ومن هنا انتقلت ديانة إيران إلى مرحلة جديدة هي النبوة) ، فكان زرادشت أول من قال بها من أهل فارس، وجاء زرادشت بكتاب هو (زندافستا)، وهو من ثلاثة أقسام:

الأول: افستا أي النصوص الأصلية، ويقسم إلى نوعين القديم وهو (فشبرد) والأقدم وهو (يآسنا). و اليآسنا هو الأهم، وفيه خمس مجموعات تضم سبعة عشر نشيداً مقدَّساً تسمى: (جاتها). كما ظهر (خردان افستا أو الافستا الصغرى الخاصة بتسابيح الملائكة.

الثاني : زند، أي التعليقات والشروح الإضافية.

الثالث: إضافات لاحقة تمت من بعد زرادشت، أضافها الموابذة تسمى فنديداد)، وهكذا تشكلت الزرادشتية من الأقوام الميدية المتواجدة في الجزء الجنوبي الغربي من هضبة إيران ضمن إقليم أذربيجان في زمن مليء بالفوضى والصراع والقتال والسلب والنهب، ما ساعد الدولة على التبشير بالزرادشتية لغرض الإصلاح الشعبي والخلقي وبالتالي السياسي، تحت ثنائية صراع الخير والشر إلى جانب الدعوة إلى وحدانية الإله في إشارة عميقة لوحدانية العرش والسلطان في الأرض وهذا ما جاء في القراءة رقم (45) من "الجانها يآسنا" بالقول: إني لأدرك. أنك وحدك الإله وأنك الأوحد الأحد، أي أهورا مازدا، إنه أنت هو أيها السيد الحكيم فليس هناك إله سواك".

وكانت الشعوب الآرية تعيد العالم الى اصل واحد انطلقت منه قوتان هما قوة الخير وقوة الشر ، وهذه الفكرة الثنائية انتقلت الى الديانة الفارسية و طبعتها بطابعها ، رغم أن الفكرة تحمل جذورا توحيدية .

وانطلاقا من هذه الفكرة تشكلت مجموعتان من الآلهة : تمثل الأولى آلهة الحق والعدل والنور، وتمثل الثانية قوى الخبث والظلام والباطل ، وقد عبد الفرس الطبيعة، كالشمس والقمر والنار والماء كما عبدوا أيضا بعض الحيوانات ، وكان اكبر الآلهة الفارسية هو "مثرا" إله الشمس و"انيتا" إلهة الخصب ، وقد غدت النار مقدسة عند الفرس أكثر من بقية العناصر الاخرى . وكان الفرس يقدمون الصلوات والقرابين في أماكن مقدسة في العراء أو في بيوت النار ، أو يقومون بحراسة النار والمحافظة على دوام اشتعالها في كل بيت تقريبا ، ولكنهم لم يعرفوا صورا للآلهة أو أماكن خاصة للعبادة ، وكان الكهنة هم الذين يديرون طقوس عبادة النار وتقديم الاضاحي ، وقد ظهرت آلهة عديدة في البداية ثم

قسمت إلى مجموعتين متفرعتين من اصل واحد هو المثل الأعلى ، اذ يقوم البعث بعد الصراع بين قوى الخير وقوى الشر فينتصر الخير والحق في النهاية[87].

6- الحياة الاقتصادية في الحضارة الفارسية:

أ- الزراعة:

اهتم الفرس بالزراعة وبإصلاح الأراضي، ووضعوا عقوبات لِمَنْ لا يزرع الأرض من الفلاحين. وكانوا من أوائل المزارعين الجيدين الذين يربّون الحيوانات ويزرعون الحبوب، وقد كانت الصحاري تغطي معظم المناطق المرتفعة. وقد طوَّر الفلاحون وسائل الري لزراعة القمح والشعير والشوفان والخضراوات، واستخدموا القنوات المحفورة تحت الأرض لتجنّب التبخر الذي تسببه الشمس الحارقة، كما جلبوا المياه من الجبال من يُعد أكثر من 150 كلم إلى الأودية والسهول، وأقاموا في المرتفعات بفارس عدداً من المدن الكبيرة.

وكان الرجل العادي أمياً راضياً عن أميته ، يبذل جهده كله في فلاحة الأرض، ومجدت الزند - أبستاق الأعمال الزراعية، وعدتها أهم أعمال الجنس البشرى وأشرفها ، يبتهج لها أهورا – مزدا، الإله الأعلى أكثر مما يبتهج بغيرها من الأعمال . وكانت بعض الأراضي يزرعها ملاكها المزارعون ، وكان هؤلاء الملاك في بعض الأحيان يؤلفون جماعات زراعية تعاونية مكونة من عدة أسر لتزرع مجتمعة مساحات واسعة من الأراضي، والبعض يمتلكه الأشراف الإقطاعيون ويزرعه مستأجروه نظير جزء من غلته، وبعضها الآخر يزعه الأرقاء الأجانب (ولم يكونوا قط فرساً)، وكانوا يستخدمون محاريث من الخشب ذات أطراف من الحديد تجرها الثيران : وكانوا يجرون الماء من الجبال إلى الحقول بطرق الري الصناعية . وكان الشعير والقمح أهم محاصيل الأرض وأهم مواد الغذاء[88].

ب- الصناعة:

لم يكن للصناعة شأن في فارس في بداية حضارتها فقد رضيت بأن تترك لأمم الشرق الأدنى ممارسة الحرف والصناعات اليدوية، واكتفت بأن تحمل هذه الأمم إليها منتجاتها مع ما يأتيها من الضرائب والخراج، أما في شؤون النقل والاتصال فكانت أكثر ابتكارا منها في شؤون الصناعة[89].

ويلاحظ أن الحرف قد تطورت بعد إنشاء المدن، وصارت صناعة الخزف والنسيج وأعمال التعدين على النحاس والحديد والذهب والفضة والخزف حِرَفاً مهمة. وصارت تجارة الأواني الخزفية والمعدنية أكثر أهمية من الأسلحة وأدوات الحرب، وخصوصاً مع الهند والصين، وكان الصينيون يستوردون حجر

الكوبالت الأزرق من بلاد فارس، وكذلك تطور تبادل تجارة السلاح بينهما والمنتجات الزراعية كالحبوب. وقام الخزّافون والنسّاجون بصناعة الخزف والسجاد والملابس، وحملت القوافل التجارية البضائع من مختلف أنحاء العالم عبر إيران إلى البحر الأبيض المتوسط. واشتملت السلع التجارية المهمة على الاحجار الكريمة وشبه الكريمة وعلى التوابل.

ت- <u>التجارة</u>:

افتتح طريق الحرير إلى أواسط آسيا والصين حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. وقد أدت الطرق التجارية من بلاد الرافدين إلى الشرق الأقصى إلى فتح أواسط ،فارس، وربطت طرق أخرى الشرق بالهند والشمال بجبال القوقاز والبحر الأسود. وقد عبد الفرس الطرق بين المدن المهمة في إمبراطوريتهم، وكان أكثرها شهرة الطريق الملكي، الذي كان يربط ساردیس في غربي آسيا الصغرى بسوسة بالقرب من الخليج العربي، وقد استخدم الفرس هذه الطرق لإيصال البريد السريع بتناوب الخيّالة.

وقد استفادت الامبراطورية الفارسية من منتجات الشعوب والأقوام التي سيطرت عليها في بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر واليونان والأناضول، وهو ما انعكس على تنوع الحياة الاقتصادية في بلاد فارس، وفي الولايات التابعة لها التي كانت تسمى بالإيالات، وكان أفضل تنظيم للإيالات على عهد دارا، ذلك أنه قسم الامبراطورية الفارسية إلى عشرين إيالة وطلب إلى كل منها أن تساهم بمبلغ معين في دخل الامبراطورية، فكان نصيب الهند 4650 وزنة من الفضة، وبابل ألف وزنة من الفضة، ومنح كل إيالة شيئا من الاستقلال أشبه بالنظام الاتحادي المعاصر.

المحور الخامس: حضارة سوريا القديمة

1- موقع وجغرافية سوريا القديمة:

إن الموقع المتميز لسوريا فيما بين قارات العالم القديم الثلاث، والمسيطر على شرقي البحر الأبيض المتوسط جعل منها منطقة لتلاقي الطرق العالمية وجسرا لانتقال التأثيرات والعلاقات الدولية.

وقد نتج عن هذا الموقع المهم لسوريا أمرا متعاكسان:

الأول: هو سهولة انتشار كل المبتكرات الحضارية التي وجدت في الأرض السورية إلى مختلف لاتجاهات فكانت مركز إشعاع حضاري بالمفهوم الواسع.

والثاني: استقطاب أطماع مختلف القوى السياسية والشعوب الغازية من كل الاتجاهات أيضا، وعلى مر العصور من أقدم حقب التاريخ حتى الآن[90].

ويطلق اسم سوريا على المنطقة الواقعة بين جبال طوروس شمالاً وشبه جزيرة سيناء جنوباً. ومن البحر المتوسط غرباً حتى نهر الفرات شرقاً. ويرى البعض من الباحثين أن سوريا القديمة كانت تضم سوريا الحالية ولبنان والأردن وفلسطين مع بلاد ما بين النهرين وقسماً من شمالي شبه الجزيرة العربية وقسماً آخر من آسيا الصغرى وغيرها من مناطق أقل أهمية.

أ - منطقة السهول الساحلية : وهي الممتدة من خليج اسكندرونة في الشمال حتى الحدود المصرية، ويتراوح عرض هذه السهول ما بين عدة كيلو مترات إلى عشرات الكيلو مترات. وتهطل في هذه المنطقة أمطار تتراوح معدلاتها السنوية ما بين 800 إلى 1000مم، وهذه الكمية تكفي لقيام زراعة حقلية جيدة إلى جانب زراعة الأشجار المثمرة. ويتميز هذا الشريط الساحلي بوجود عدد من الموانئ الطبيعية فيه، والتي ازدهرت منذ الألف الثالث قبل الميلاد وأهمها أوغاريت وجبيل وصيدا وصور وغزة.

ب- منطقة الجبال الساحلية:

وتمتد هذه أيضا من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة الشريط الساحلي، وتفصل السهل الساحلي عن منطقة السهول الداخلية، وقد اشتهرت هذه الجبال منذ القديم بغناها بالأشجار المهمة التي كانت محط اهتمام الدول القوية المجاورة لسوريا[91].

ت- منطقة السهول الداخلية:

تقع إلى الشرق من سلسلة الجبال العالية، وتمتد من الشمال عند الانحناءة الغربية لنهر العاصي، وهو وادي طويل ممتد من الشمال إلى الجنوب يسمّى "العمق" في الشمال وفيه مدينة حماة التي ترتفع 1015 قدما عن سطح البحر، ويسمى "البقاع" في لبنان، ويمتد حتى يتصل بوادي الأردن والبحر الميت ثم وادي عربة حتى خليج العقبة[92].

ث - منطقة البادية: وهي المنطقة الواقعة إلى الشرق من منطقة السهول الداخلية وصولاً إلى نهر الفرات شرقاً، وتتصل جنوباً مع شبه الجزيرة العربية. وكانت هذه المنطقة موطناً لعدد من القبائل التي تتجول فيها، والتي كثيراً ما تحاول الانتقال إلى المناطق الحضرية الخصيبة سواء في بلاد الرافدين أم في سورية[93].

وتمتاز سوريا باختلاف بيئتها الجغرافية - ففيها سهول ساحلية خصبة ذات موانئ. بحرية صالحة، وفيها وديان وفيها جبال وعرة تتخللها مناطق أشبه بالواحات تمتاز بخصوبة ما حولها من أراضي. كما توجد فها أيضاً مساحات واسعة من الأراضي الصالحة الزراعة ، ولكن قلة مشروعات الري وقلة الأيدي العاملة حالت دون استغلالها . وفيها أيضا مساحات صحراوية واسعة لا تقل عن أربعة مليون فدان من المجموع الذي يبلغ نحو 12 مليون فدان[94].

وكانت سوريا على صلة بالأقطار المحيطة بها، وهو ما جعلها معرضة لأطماع ما ينشأ في تلك البلاد من امبراطوريات، أو ميدانا للصراع بينها، فشهدت جبالها ووديانها كثيرا من جيوش الأمم المختلفة من بابل ومن أشور، ومن مصر ومن إيران، ثم خيتا، ثم شهدت أيضا جيوش الإسكندر المقدوني ومن بعده الرومان.

2- **السكان:**

كان سكان سوريا القدماء بصفة عامة خليطا من أجناس مختلفة نظراً لموقعها الجغرافي، ولكن السكان الأصليين كانوا من جنس البحر الأبيض المتوسط. كما ذكرنا ، ولكن امتزجت بهم منذ أقدم العصور عناصر من أجناس مختلفة أهمها دون شك العنصر السامي ، لأن جزيرة العرب كانت على حدود سوريا الجنوبية. ويتوق البدوي دائما عند ما تمر به سنوات عجاف إلى الاستقرار في إحدى المناطق الخصبة الواقعة على حافة صحرائه.

لم تكن سوريا في عصور ما قبل التاريخ، وهي في ذلك كغيرها من البلاد. آهلة بعدد كبير من السكان كما هو حادث اليوم، بل كان هناك متسع لغيرهم، فلما جاءت الهجرات السامية الكبيرة حوالى عام 3000 قبل الميلاد نجد أن الكنعانيين (وهي التسمية التي وردت في التوراة) قد استقروا في الغرب كما استقر الأموريون بعد ذلك في الوسط والشرق، بل أن بعض الأموريين نزلوا في العراق واستطاعوا بعد قرون عديدة وبعد أن تحضروا ، أن تكون لهم السيادة على المناطق التي نزلوا فيها وأن يؤسسوا لهم دولا هناك[95] .

وفى الوقت الذي كانت فيه بعض تلك الدول، مثل بابل مزدهرة في وسط العراق، كانت بعض الدول الأمورية مثل مارى مزدهرة فى غربى الفرات في داخل الحدود السورية الحالية، ولكنا لا نعرف عن الكنعانيين القدماء الذين كانوا في أقصى الغرب أنهم كوّنوا دولا أو إمبراطوريات سامية ، أو كان لهم في الألف الثالث قبل الميلاد شأن خاص ، بل الأرجح أن البلاد كانت مقسمة إلى كثير من المناطق يحكمها زعماء أو أمراء يعيشون في مدن صغيرة ، وتعيش قبائلهم متفرقة حولهم، ويحيون الحياة التي تلائم بيئتهم.

3- **الحيثيون:**

من المرجح أن الحيثيين وفدوا إلى هضبة الأناضول في بداية الألف الثاني قبل الميلاد من موطنهم في أواسط آسيا إلى الشرق من البحر الأسود، وأنهم فرع من فروع الشعوب الهندو - أوروبية ، وأصبحوا في القرون الأخيرة من الألف الثاني قوة مدت نفوذها على ما جاورها من البلاد.

واحتل الحيثيون عند مقدمهم جزءاً كبيراً من وسط هضبة الأناضول عند منحنى نهر "الحاليس Halys" وكانت عاصمتهم تسمى . "خاتوساس"، وموقعها الحالي المدينة الأثرية المعروفة باسم " بوغاز كوى"، على مسافة سبعين كيلو مترا تقريبا إلى الشرق من أنقرة في وسط منطقة جبلية وعرة ما زالت بقايا تحصيناتها وقصورها باقية إلى الآن ، وقد عثر فيها في أوائل سنوات القرن العشرين على كثير من الوثائق الهامة وبخاصة الألواح التي تشمل الأرشيف الملكي.

ويعتبر المظهر العام لآسيا الصغرى "الأناضول" موطن الحيثيين عبارة عن هضبة مرتفعة تأخذ في الارتفاع من ساحل بحر إيجة في الغرب حتى جبال ارمينيا في الشرق، ويبلغ ارتفاع أحد قممها وهو "إيزيل داغ" حوالي 9600 قدم[96].

وحوالي عام 1640 قبل الميلاد، استطاع أحد ملوكهم ويسمى "لابارناس" مد نفوذه على أجزاء أخرى كثيرة في داخل الأناضول ثم تمكن "حاتوسيل الأول" من توسيع رقعة ملكه ، ورمى بعينيه إلى إخضاع شمالي سوريا والسيطرة على طرق التجارة بينها وبين بابل وأشور[97].

4- <u>علاقة الحيثيين بسوريا</u>:

في عام 1420 ق.م. اعتلى "توداليا الثاني" عرش الدولة الحثية، فهاجم حلب واستولى عليها ، لكن الحوريين والميتانيين استعادوها بعد وفاته، واضطر خلفه حاتوسيل إلى مهاجمتها مجددا ،واستعادها ، وأجبر ملكها على أن يُقسم يمين الولاء والطاعة له. وكان أولاده وإخوته ،وأصهاره، وأقاربه، وعساكره بالمثل ،متحدين وأينما سار إلى قتال كان يقضي على بلاد أعدائه بالقوة، فقد دمر البلاد حتى أصبحوا لا حول لهم ولا قوة وجعل البحر ،حدودهم، ولما عاد من المعركة ذهب كل من أولاده إلى كل جزء من البلاد وعادت المدن الكبرى مرة ثانية في قبضة يده[98].

ومني خلفه "توداليا الثالث" الذي حكم حوالي عام 1400 ق.م، بهزائم عدة، فقامت ثورة ضده وقتل، فدبَّت الفوضى في البلاد، ووصلت الدولة في عهد خلفائه إلى حافة الهاوية ولم يُنقذها من السقوط سوى

اعتلاء الرجل القدير "سوبيلوليوما" العرش في عام 1395 ق.م، ويقسم عهده إلى ثلاث مراحل[99]:

تميزت المرحلة الأولى (1395 - 1378 ق.م.) بالصراع مع الميتانيين والتوسع في سوريا، فقد اصطدم بالميتانيين وتغلب عليهم ودخل عاصمتهم "واشوكاني" ودمّرها، ثم توسع في سوريا الداخلية والساحلية واتخذ من لبنان حداً لدولته، وكاد هذا التوسع أن يُزعج المصريين لأن النفوذ المصري في سوريا كان قوياً، ويمكن أن يؤدي اندفاع الزعيم الحثي إلى صدام بين الدولتين الحثية والمصرية، لولا أن مصر كانت تمر آنذاك بمرحلة عدم استقرار داخلي في ظل انهماك الفرعون أخناتون (أمنحوتب الرابع 1380- 1362 ق. م.) بإصلاحاته الدينية، وحتى يطمئن الفرعون المصري على حسن نواياه أرسل إليه يهنئه بمناسبة اعتلائه العرش.

اضطر سوبيلوليوما أن يعود إلى بلاده بفعل ظروف داخلية طارئة، وترك مهمة المحافظة على سوريا بيد ابنه "تليبينو"، لتبدأ المرحلة الثانية من عهده (1378 - 1358 ق.م.). وقد حافظ "تليبينو" على الوجود الحثي في سوريا على الرغم من أن المهمة لم تكن سهلة في ظل توزّع ولاء المقاطعات السورية المتعددة بين النفوذين الحثي والمصري، واتبع في سبيل ذلك أسلوب الدسائس والمؤامرات، وقد عبر أحد هؤلاء، وهو رب عدي ملك جبيل، عن خشيته من ازدياد النفوذ الحثي وكثرة مؤامرات الحثيين، في الرسالة التي أرسلها إلى الفرعون أخناتون، لكن الملك المصري كان منهمكا بإصلاحاته الدينية فلم يعر نداءات حلفائه أي التفاتة جدية.

وشهدت المرحلة الثالثة (1358 - 1347 ق.م.) عودة سوبيلوليوما إلى سوريا بعد تسوية الأمور لصالحه في آسيا الصغرى، ولعل لذلك علاقة بالصراع الأسري بين الحوريين والميتانيين وتدخل دولة أشور في ذلك. وبعد اصطدامات عسكرية سيطر على بلاد الحوريين والميتانيين ونصَّب ابنه "بياسيل" ملكاً على بلاد الحوريين وعين صهره "ماني وزابن توشراتا" ملكاً على بلاد الميتانيين، وولى ابنه تليبينو ملكاً على حلب، وبذلك أنشأ دولة موالية له بينه وبين مملكة أشور، وسيطر على الأراضي الممتدة من الفرات حتى البحر

المتوسط. وحاولت ملكة مصر "عنخس إن أمون" زوجة "توت عنخ أمون" أن تتقرب إليه بالزواج من أحد أبنائه بعد وفاة زوجها، إلا أن هذه الزيجة لم تتحقق بفعل استيلاء القائد "حور محب" على السلطة في مصر وقتله الملكة وخطيبها.

ووصلت قوة الحيثيين أوجها حوالى عام 1350 ق. م. ولكن اتساع رقعة ملكهم كانت سببا في ظهور الضعف فيها. ولم تكن هناك مندوحة من وقوع الصدام بين الدولة الحيثية ومصر، ودارت بينهما الحروب -كما ذكرنا من قبل، وانتهت أخيراً بالصلح وتوقيع المعاهدة الشهيرة بينهم وبين رمسيس الثاني ، وأصبحت الصلة بين البلدين صلة مودة وصداقة ، بل ومصاهرة بين البيتين المالكين . وحوالى عام 1250 قبل الميلاد سقطت الإمبراطورية الحيثية تحت الضربات التي تلقتها من هجرات وغزوات قام بها على الأرجح فرع من فروع شعوب البحر[100].

وإذا كانت الامبراطورية الحيثية قد زالت وانتهت أيامها ، فإن عناصر الحضارة الحيثية ظلت حية، لا في هضبة الأناضول فحسب، بل وفى شمالي سوريا أيضا ، حيث تأثرت كثير من مدنها وبخاصة في حلب وفى غيرها بتلك الحضارة.

5- <u>مظاهر الحضارة الحيثية</u>:

أ- <u>المظهر السياسي</u>:

يُعد الحثيون من أقوى الشعوب الهندو - أوروبية وأكثرها حضارة كونوا طبقة عسكرية حاكمة سيطرت على الطبقات الدنيا، والملك هو رئيس السلطة يرتبط مباشرة بالآلهة، ويستشير نبوءات عرافيها في الشؤون العامة، ويصوّرها وهي تُقبل الملك والملكة ونحا نحو تأليه نفسه تشبهاً بفرعون مصر، واتخذ لقب شمسي، وكان يُعبد بعد موته، ويتقبل التقدمات الإلهية. ولكن لم تتبلور هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة، إذ نجد. إلى جانب الملك هيئة مجلسية تتألف من أفراد الطبقة الحاكمة ولها وظيفتان:

الأولى: تقرر هذه الهيئة قيام الملك الجديد الذي يحلف بين يدي أفرادها يمين الوفاء، وتتلقى منه

عهداً مماثلاً، ويختار الملك ولي عهده ويقدمه إلى الهيئة للحصول على يمين الطاعة.

الثانية: تتمتع الهيئة بسلطة قضائية فيفصل أفرادها في الدعاوى التي تعرض عليهم وعلى أقرباء الملك. يتمتع الأمراء، حكام المقاطعات بنوع من الاستقلالية في إدارة شؤون أراضيهم، وبذلك تستثنى أجزاء واسعة من الدولة من إدارة الملك المباشرة، لكن الملك يستثمر بعض الأراضي ويتسلم العائدات، ويفرض أعمال السخرة، كما يتمتع رجال الدين بالحصانة والكاهن الأعظم بسلطات مدنية، إلى جانب سلطته الدينية.

ويعقد الملك مع الأمراء الإقطاعيين معاهدات تضمن لهم ولذريتهم سيطرتهم على الإقطاعة مقابل الطاعة، ويجمع هؤلاء أوقات الحرب، فرقهم العسكرية الخاصة من سكان أراضيهم، ويشتركون في الحرب مقابل الحصول على جزء من الغنائم، وللملك جنوده الخصوصيون، وهم أشبه بجنود الحرس الملكي، منهم المرتزقة، ومنهم المواطنون. ولما كانت التعبئة العامة تجري ببطء فقد توجب الاحتفاظ بحاميات عسكرية في الحصون الواقعة في مناطق الحدود.[101]

ولم يكن الملك رئيس الدولة فحسب، بل كان أيضا الكاهن الأكبر، ورئيس الجيش الذي يقوده في المعارك، وكان القاضي الأكبر الذي يحكم بين الناس في منازعاتهم، وكان لأمه الحق في تولي مهام منصبه عند غيابه.

ب- **<u>المظهر الاقتصادي</u>:**

كان المجتمع الحيثي مجتمعا يقوم على الزراعة وتربية الحيوان ، وكان في قوانينهم ما يكفي لحماية هذه الثروة مثل تحديد أثمان المحاصيل ، كما نعرف أيضا أن قوانينهم حددت أجور بعض فئات الصناع.

ولكن ثروة الحيثيين لم تكن مستمدة من الزراعة أو تربية الحيوان ، بل كانت في الواقع من المعادن التي تحتوى عليها بلادهم والتي كانوا يستخرجونها وعرفوا طرق صنعها ، ومنها النحاس والفضة والرصاص . وعلى الأرجح أنهم عرفوا أيضاً صنع الحديد ، وكان لهذا المعدن أثر كبير في حياتهم ، ويعتقد كثير من

الباحثين في تاريخ الصناعة، أن الحيثيين هم أول من عرفوا صناعة الحديد، وأنهم جمعوا ثروة من الأسلحة المصنوعة منه التي كانت تفضل الأسلحة المصنوعة من النحاس أو من البرونز .

واستفادت الحياة الاقتصادية من معطيات أعمال التبادل والقروض والكفالة والرهن ونشطت التجارة في مختلف مرافقها، وأدى وضع جغرافية بعض الأماكن إلى أن تلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الأبيض المتوسط من جهة، وبلاد ما بين النهرين وإيران من جهة أخرى، وغدا الحديد المستخرج من الجبال المتاخمة لأرمينيا أساس الحضارة الحثية، فكان يُصدَّر على نطاق واسع إلى البلدان الشرقية والجنوبية[102].

ت- <u>المظهر الثقافي والديني</u>:

أمكن معرفة اللغة الحيثية من دراسة الآلاف العديدة من ألواح الطين التي عثر عليها في "بوغاز كوى" واتضح أنهم كانوا يستخدمون فيما بينهم لغتين يتحدثون بهما ترجعان إلى أصل واحد، أولاها اللغة النسية (Nesite) وكانت لغة البيت المالك، والثانية اللغة اللوفية (Luvite) التي كان يستخدمها عامة الشعب ومنتشرة انتشاراً كبيرا في البلاد[103].

وتنتمي اللغة الحثية في أكثر ألفاظها إلى أسرة اللغات الهندو أوروبية وعُثر في العاصمة "بوغاز كوى" على اثني عشر ألف لوح تبيَّن أن اشتقاقها وتصريفها شديد الشبه باللغتين اللاتينية واليونانية، وتحتوي على مفردات حثية وما يقابلها باللغتين السومرية والبابلية، ما يدل على تأثير حضارة بلاد ما بين النهرين على البلدان الشرقية بعامة.

استعمل الحثيون الخط التصويري يكتبونه سطراً من الشمال وسطراً من اليمين وأخذوا الخط المسماري عن البابليين وعلموا أهل كريت صنع الألواح الطينية الخاصة بالكتابة عليها، وتتضمن الألواح عادة أوامر إدارية ونصوصا قانونية[104].

وفي مجال الفن تأثر الحثيون بالبابليين والمصريين، ورغم ذلك فقد امتازت الفنون الحثية ببعض

الصفات الخاصة الأصيلة كاستعمال الاعمدة المصفوفة أفقيا في الاسوار ، وتزيين القصور وأبواب المدن بشماليل ورسوم تمثل مخلوقات حقيقية وخيالية، وصور للآلهة والحيوانات المقدمة . وقد اقتبسوا عن المصريين تمثال أبي الهول والقرص المجنح رمز الإله آتون ، ولكن السفينكس الحثي تميز عن المصري بأن رأسه كان رأس امرأة وجسمه جسم أسد ، بينما يمثل تمثال أبي الهول رأس رجل على جسم أسد، وقد لعب الحثيون دورا كبيرا في نقل بعض المواضيع الفنية والأدبية والدينية من بلاد الشرق الى العالم الاغريقي[105].

ومعلوماتنا عن ديانتهم قليلة نسبيا ، ولكن من الحقائق المعروفة أن بعض المعبودات السورية والحورية ، وربما بعض الالهة التي كان يعبدها سكان آسيا الصغرى قبل قدومهم ، وجدت لها مكانا بين معبوداتهم . وكانت لهم معابد ، ومع ذلك فكانوا يقيمون كثيراً من احتفالاتهم الدينية ومراسيم الديانة وطقوسها في الهواء الطلق وعلى الأخص إلى جانب مجارى الأنهار .

وكانت لهم مدن محصنة تحصينا قويا ومحاطة بأسوار ضخمة، ومن مظاهر عمارتهم زخرفة الجدران بأحجار منقوشة وعمل بوابات كبيرة على جانبها تماثيل ضخمة.

وقد وجدت في المدن الحثية المقدسة بخاصة، آثار هياكل ونقوش صخرية تبيّن الأرواح الحارسة التي تحمي الأبواب كما جرت العادة عند الأشوريين، وتمثل كآلهة منفردة أو مواكب دينية، أشهرها مجموعة من أربعين ذكراً تتقدم صفاً من عشرين أنثى أو أكثر، ونُظِّم الأشخاص في كلا الصفين وفقاً للدرجات، ففي الصف الأمامي الآلهة الكبرى، تليها الآلهة الثانوية، ثم رجال الدين، وتقدم لنا هذه النقوش معلومات عن الدين.

وأهم الاعياد عند الحثيين عيد رأس السنة ويقع في الشتاء ، وعيد النبات في الربيع ، وعيد فلاحة الأرض ، وعيد الحصاد ، وغيرها من الاعياد الاستثنائية التي يقررها الملك . وفي الأعياد تقدم القرابين وتقام الاحتفالات وتجري زيارات للمعابد. واعتقد الحثيون أن أقدارهم منوطة بالآلهة، وهي التي تنظم سير الحوادث، وتعاقب الإنسان اذا لم يؤد واجباته تجاهها ، وقد تؤجل العقاب ولكنها لا تهمله[106].

المحور السادس: الحضارة المصرية القديمة

تمهيد:

إن تاريخ الحضارة المصرية يبدأ قبل الملك نارمر(مينا) موحد مصر بآلاف السنين، ففي نهاية العصر الحجري القديم كان يسكن مصر خليط من بعض السلالات البشرية من الجنس الحامي القادم من الحبشة, وجنس البحر الأبيض المتوسط القادم من غرب آسيا, ثم وفدت بعض العناصر الأرمينية في أوائل عصر الأسرات, تلتها عناصر زنجية قادمة من الجنوب على طول التاريخ المصري القديم, وقد انصهرت هذه الأجناس والعناصر في بوتقة واحدة لتكوّن الإنسان المصري القديم.

ومن الناحية الجغرافية، فإن مصر تتوضع في الزاوية الشرقية من القارة الإفريقية، وهي متصلة مع آسيا بواسطة برزخ السويس، وقد نسب إلى هيرودوت القول أن "مصر هبة النيل" وهذا يشير إلى أهمية النهر الاستثنائية في حياة المصريين، فالنهر استخدم لربط مصر مع المناطق المجاورة لها، فعبره كانت تتم الاتصالات مع النوبة والبلدان الواقعة في قلب القارة الإفريقية، وعبر هذا النهر كانت مصر تتصل بشواطئ البحر المتوسط ومن هناك بالجزر الواقعة في هذا البحر من ناحية، وبالموانئ السورية من ناحية أخرى.

وقد مهدت لمصر طريقها الحضاري القديم عوامل طبيعية وبشرية عدة يأتي في مقدمتها ضخامة نصيبها من مياه نهر النيل في مجراه الأدنى, والتجدد السنوي لخصوبة أرضها, وسهولة الاتصالات بين أجزائها, وقلة العوائق الطبيعية الحادة فيها، ثم موقعها الجغرافي المتميز واعتدال مناخها, وتوفر المواد الأساسية فيها. ولم يقل أثرا عن ذلك كله في دفع مسيرة الحضارة المصرية كثافة عدد سكانها, وقدم الأواصر بين جماعتهم ووحدة لغتهم, وقدم إدراكهم لوحدة وطنهم بالإضافة إلى استقرار نظم الحكم الداخلية في أغلب عصورها. مع العلم أن هناك عوامل أخرى مضادة لهذه العوامل سواء كانت من داخل مصر أو من خارجها كانت لها آثارا وانعكاسات سلبية على الحضارة المصرية في بعض مراحل تاريخها.

1- مراحل الحضارة المصرية:

قسم المؤرخون تاريخ الدولة المصرية إلى عهود وفترات انتقالية تمثلت في حكم 30 أسرة، حيث تمايزت كل مرحلة عن الأخرى من حيث امتدادها الزمني وقدراتها البشرية ومستوياتها الحضارية, ولكن رغم هذا التمايز فقد اتصلت كل واحدة منها اتصالا وثيقا بسابقتها كما مهدت بتطوراتها للمرحلة اللاحقة، ويمكن أن نوجز هذه المراحل فيما يلي:

أ- العهد العتيق:

ويسمى اصطلاحا كذلك باسم عصر بداية الأسرات وقد حدث في هذا العهد توحيد القبائل في مصر العليا ومصر السفلى, وكان نشوء الدولة بأجهزتها تحقيقا لضرورة تاريخية بعد ظهور التمايز الطبقي، وفي سبيل حماية مصالح الطبقة الأرستقراطية وقمع ثورات الفلاحين والعبيد, وتنظيم مشاريع الري، ومع ذلك فإن تأسيس الدولة يعتبر بحد ذاته خطوة متقدمة تاريخيا بالنسبة إلى الوضع القبلي[107].

إن أول ملك ظهر في توحيد مصر العليا مع مصر السفلى هو الملك مينا على ما يذكره المؤرخ هيرودوت, وأسس ممفيس لتكون عاصمة له وقد كان مينا ملكا على الجنوب ثم أخضع إلى سلطته دولة الشمال حوالي3200 ق.م وأسس سلالة حكمت مصر المتحدة، وعرفت بالأسرة الأولى, وقد قامت بعض التمردات في مصر السفلى(الشمال) كان الهدف منها الانفصال عن الجنوب إلا أن مينا تصدى لهذه التمردات وأسر حوالي 6000 شخص.

وفي عهد الأسرة الثانية تجددت الاضطرابات والمنازعات السياسية بين مصر العليا والسفلى وأدت إلى انفصال الشمال عن الجنوب, ولكن الملك (خع- سخموي) آخر ملوك الأسرة الثانية استطاع أن يعيد وحدة مصر وكانت ضريبة ذلك قتل حوالي 50 ألف من الشماليين, وقمع التمرد، ثم بعد ذلك عمل على تنظيم الأمور الداخلية في البلاد. وامتازت هذه الفترة تاريخيا باستقرار وحدة مصر على العموم, وبمعرفة الكتابة وبظهور المصادر التاريخية المكتوبة فيها لأول مرة تبعا لذلك, كما تعتبر عصر التكوين بالنسبة

لنظم الحكم وأوضاع الإدارة, كما احتل ملوك الأسرتين الأولى والثانية شبه جزيرة سيناء وشرعوا في استخراج النحاس, كما احتلوا بلاد النوبة لاستثمار ذهبها وللحصول على العبيد, وقد تعاقبت خلال هذه الفترة على عرش مصر الأسرتان الأولى والثانية[108].

ومن الملفت للانتباه أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية قد اختاروا عاصمة للبلاد في موقع متوسط يسمح لهم بالإشراف على كل أنحائها بسهولة، ولذلك وقع الاختيار على منف أو ممفيس في أول الدلتا. ولكن الملك لم يكن بإمكانه أن يحكم البلاد كلها بصورة مباشرة، لذلك فقد فوض بعض سلطاته لموظفين اختلفت مراتبهم حسب الوظيفة التي كانوا يشغلونها، مثل حملة الأختام، ورجال بيت المال، وحكام الأقاليم، والكتّاب، والقادة العسكريين..

ب- <u>عهد الدولة القديمة(2800-2260)ق.م</u>:

ويمتد من الأسرة الثالثة إلى السادسة, وقد واصل فراعنة الأسرتين الثالثة والرابعة(بناة الأهرام) سياسة الفتح بعد توطيد السلطة الملكية داخل البلاد، فقد قاد زوسر وهو أول ملوك الأسرة الثالثة ومؤسسها حملة إلى سيناء وخلد ذكرى انتصاراته على بدو المنطقة في صخور منطقة وادي مغارة وتوسع في بلاد النوبة.

كما أمر بتشييد أول هرم في مصر وهو الهرم المدرج في سقارة، أما سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة فقد أرسل حملة إلى بلاد النوبة عاد منها بغنائم طائلة وأسر حوالي 7000 آلاف أسير وقد حفظت لنا كذلك نقوش وادي مغارة سجلا عن حملاته في منطقة سيناء وانتصاراته على بدو الصحراء, وكانت العاصمة في عهد هذه الأسرة هي مدينة ميدوم, وقد شيد هذا الملك هرما في ميدوم, ثم انتقل إلى مسافة قريبة من منف وأقام هرمين على مرتفع دهشور، كما تابع فراعنة الأسرة الخامسة حروب التوسع على المناطق المجاورة[109]. وقد كان مؤسس الأسرة الخامسة هو رئيس كهنة الإله رع الذي يدعى أوسر كاف الذي بنى هرما لنفسه في سقارة،وقد عثر في المعبد الجنزي الملحق به على رأس تمثال كبير له نحت من الجرانيت, ولم يهتم ملوك

هذه الأسرة ببناء الأهرامات اهتماما كبيرا, ولكنهم اهتموا ببناء المعابد لإله الشمس وقد اشتهر من هؤلاء الملوك الملك "أوناس" الذي أمر بتشييد هرم في سقارة وتزيينه بكتابات دينية أطلق عليها اسم "متون الأهرام"، وتعتبر من المصادر التاريخية الهامة في معرفة معتقدات قدامى المصريين.

واتصفت أغلب عهود الدولة القديمة بالاستقرار السياسي النسبي ومركزية الحكم, وتميزت معالم الحضارة فيها بالنمو الداخلي في شؤون العمارة والفنون والتنظيمات الإدارية, وفي الجانب الديني ظهر الاهتمام بعقائد الآخرة، وتمثلت أغلب آثار عصور الدولة القديمة في مقابرها الضخمة وأهرامها الكبيرة الرائعة التي انتشرت في مناطق ميدوم ودهشور وسقارة والجيزة جنوبي القاهرة الحالية، بالإضافة إلى انتشار آثارها في مناطق أخرى كثيرة من مصر[110].

ت- **عهد الانتقال الأول:**

ويأتي زمنيا بعد عهد الدولة القديمة, ويمتد من نهاية حكم الأسرة السادسة حتى إعادة توحيد البلاد في ظل حكم الأسرة الحادية عشر، وهو عصر انتقال من مركزية الحكم الموحد إلى تفرق سياسات ووجهات الحكام, ومن الاستقرار السياسي والأمني إلى التفتت والانحلال, حيث ظلت مصر مجزأة سياسيا إلى دويلات صغيرة حوالي قرنين من الزمن.

وقد انتعشت في الوقت ذاته خلال هذا العصر أحوال الطبقات الوسطى والبسيطة, ونمت فيه روح الفردية, وظهرت بعض العقائد الدينية المتحررة، وتشمل هذه الفترة الانتقالية الأسر السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، وفي نهاية عصر الانتقال الأول دار الصراع بين ملوك طيبة وملوك هيراكلوبوليس من أجل السيطرة على مصر كلها.

وانتهى الصراع بانتصار ملوك الأسرة الـ11 فأصبحت طيبة عاصمة لمصر المتحدة من جديد, ومنذ ذلك الحين يدخل تاريخ مصر في دور جديد يسمى بعهد الدولة الوسطى.

ث- **عهد الدولة الوسطى(2050-1700)ق.م**

وقد تميز هذا العهد باستعادة مصر لمركزية الحكم والسلطة الملكية, ووحدة الرأي في السياسة الداخلية والخارجية, وقد حكمت مصر خلالها ثلاث أسرات هي الأسرة الحادية عشر والثانية عشر والثالثة عشر, وقد أسس الأسرة الحادية عشر في طيبة في جنوب مصر "منتوحوتب" الذي أنهى حكم الأسرة العاشرة في هيراكلوبوليس في وسط مصر ووحد مصر تحت سلطته, وانتهت بذلك حالة الفوضى الداخلية التي سادت في البلاد خلال الفترة الانتقالية الأولى ووضع حدا لغارات الشعوب المجاورة كالنوبيين والأسيويين والليبيين, كما حدث تطور كبير في الأوضاع الداخلية الاقتصادية والاجتماعية.

كما أنه في عهد الأسرة الثانية عشر التي أسسها "أمنمحات الأول" حققت مصر أيضا استقرارا سياسيا وازدهارا اقتصاديا كبيرا, ومن الأعمال التي قام بها هذا الملك:

- نقل العاصمة من طيبة في الجنوب إلى منطقة منف عند حدود الدلتا، ولعله أراد بذلك التقرب من سكان الدلتا الذين شعروا بالظلم من جراء نقل العاصمة إلى الجنوب في ظل الأسرة السابقة.

- استمالة حكام الأقاليم الذين يتمتعون بالنفوذ والقوة في مناطقهم دون الإخلال بهيبة السلطة المركزية.

- السماح لهم بنوع من الاستقلال مع القيام بالواجبات من دفع الضرائب وتجهيز الجيوش.

- تحسين الأوضاع الاقتصادية حيث عمل على تنشيط الزراعة والتجارة واستغلال المناجم المعدنية.

- كما عمل في السياسة الخارجية على تنظيم الحملات على ليبيا والنوبة وسيناء, واتخذ إجراءات ذات دلالة وطنية مثل تقوية التحصينات في المناطق الحدودية شرقي الدلتا وفي الجنوب.

وهذه الإجراءات كانت من أجل المحافظة على وحدة البلاد وتأمين الاستقرار الداخلي, وقد زاد في تعزيزها الملك "سنوسرت الثالث" الذي قام بحملات على ليبيا والنوبة، واهتم بالأوضاع الداخلية وعمل على تنشيط الزراعة والتجارة.

وعموما فقد تميز عهد الدولة الوسطى بالإبقاء على ازدهار الفردية, واتساع مجال التعامل والتأثير بين مصر وجيرانها في الشرق الأدنى وجزر البحر المتوسط, واعتبر هذا العهد بمثابة العصر الذهبي للغة المصرية وآدابها[111].

ج- **عهد الانتقال الثاني:**

وقد كان انتقالا اضطراريا من مرحلة القوة إلى مرحلة الضعف, ومن مرحلة الوحدة السياسية إلى مرحلة التفكك والانقسام, وقد حكمت خلال هذا العهد الأسر من الثالثة عشر حتى السابعة عشر، ومثلت الأسرتان الثالثة عشر والرابعة عشر، عهد الظلام في مصر، وتجدر الإشارة إلى أنهما حكمتا في الوقت نفسه أجزاء مختلفة من البلاد، وقد كثرت المنازعات الداخلية بين حكام الأقاليم أنفسهم وبينهم وبين السلطة المركزية، فاضطرب النظام واختل الأمن مما نقل الحكم في مصر من حكم محلي قومي إلى تدخل أجنبي تمثل في الهكسوس، الذين نجحوا في احتلال مصر في حوالي عام 1700 ق.م واستقروا في القسم الشرقي من دلتا النيل, واتخذوا عاصمة لهم مدينة "أفاريس" واستمر حكمهم حوالي 150سنة، وحكمت منهم أسرتان الخامسة عشر والسادسة عشر.

وفي مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد قامت في مصر حرب تحريرية بقيادة ملوك طيبة(الأسرتان السابعة عشر والثامنة عشر), واستطاع في الأخير الملك "أحمس الأول" إجلاء الهكسوس وملاحقتهم إلى فلسطين ومحاصرتهم والانتصار عليهم، وهكذا أنشئت في ظل الأسرة الثامنة عشر حكومة مركزية قوية انتقلت مصر من خلالها إلى مرحلة قوة أخرى[112].

وقد كان لاحتلال الهكسوس مصر الدور الأكبر في تغيير وجهة نظر الملوك المصريين زمن الدولة الحديثة، فيما يتعلق بسياستهم الخارجية وأهمية وجود جيش قوي يكون في أيديهم أداة لتنفيذ سياسة خارجية توسعية، تهدف قبل كل شيء إلى إبقاء الأخطار بعيدة عن الأراضي المصرية وذلك بضرب الأعداء في بلادهم قبل أن يتمكنوا من تجميع قواهم إلى الحد الذي يجعلهم قادرين على تهديد مصر نفسها، وبذلك ازدادت

أهمية الجيش في الحياة العامة، وازدادت مكانة العاملين فيه، والذين أصبحوا يشكلون طبقة تتمتع بامتيازات كبيرة ولا سيما في بداية حكم الأسرة الثامنة عشر[113].

ح- **عهد الدولة الحديثة(1584-1071)ق.م:**

وقد بدأ هذا العهد بعودة الاستقرار السياسي القومي ومركزية الحكم وقوة الملكية التي فقدت في المرحلة الانتقالية, واستمرت هذه الدولة أكثر من خمسة قرون وحكمت البلاد فيها ثلاث أسرات هي الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرون. وقد تميزت ببلوغ الذروة في الازدهار والرخاء العام وفي الفنون, كما تميزت بالرقي الديني حتى بلغت درجة التوحيد, كما تميزت في السياسة الدولية بالتبادل الحضاري والتوسع الخارجي.

ففي عهد الأسرة الثامنة عشر يلاحظ نشاط ملموس في سياسة مصر الخارجية, حيث أخذ ملوك هذه الأسرة يعملون على تأسيس إمبراطورية تضم بلاد النوبة(السودان) ومصر وسوريا (بما فيها فلسطين وفينيقيا).

وكان مؤسس الأسرة "أحمس الأول" قد وضع حجر الأساس لتلك الإمبراطورية بطرده للهكسوس من مصر وملاحقتهم إلى فلسطين, وتواصلت الحملات الخارجية في عهد أمنحوتب الأول و"تحوتمس الأول"[114].

وفي عهد "تحوتمس الثالث" وخلفائه أصبحت لمصر إمبراطورية واسعة الأرجاء حيث أصبحت تنعم بفترة ازدهار كثر فيها العمران وازداد الترف، وفي أثناء حكم "أمنحوتب الرابع" "أخناتون" زال النفوذ المصري عن سوريا تقريبا ليحل مكانه نفوذ الحيثيين وذلك لأن أخناتون اهتم بالأمور الدينية أكثر من اهتمامه بالأمور السياسية والعسكرية.

وفي نهاية الأسرة العشرين أو -الحادية والعشرين عند بعض المؤرخين- وخاصة في نهاية حكم الفرعون رمسيس الثالث حكم مصر عدد من الملوك الضعفاء كثرت الفوضى في عهدهم ولم يبقى للملك أي سلطة, وفي المقابل بدأ يزداد نفوذ كهنة الإله آمون ودخلت مصر في مرحلة الانحطاط والضعف.

خ- **عهد الانحطاط والضعف(1071-525أو332)ق.م:**

ويعتبر هذا العهد بداية لزوال الحضارة المصرية, وقد بدأت مظاهره مع نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن العاشر وقد تذبذب النشاط المصري خلاله بين مد وجزر, وبدأ ضعف السلطة المركزية واستقلال حكام الأقاليم وبروز الطبقة الأرستقراطية وتناميها أدى إلى تفكك مصري من جديد, وكمثال على ذلك ما حدث في القرن الـ11 أين أصبح كبير كهنة آمون فرعونا للأسرة الحادية والعشرين، ولكنه لم يبسط سلطانه على جميع البلاد, كما أصبح لأقاليم الشمال ملوكها الخاصون وهو ما يبين ضعف السلطة المركزية التي كانت قوية وموحدة في العهود السابقة.

وقد ازدادت مصر في هذا العهد تدهورا في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية, وقد شكل الليبيون في الجيش المصري طبقة عسكرية تنافس بنفوذها سيطرة الكهنة, وقد تمكن أبرز القادة ويدعى "شيشنق" في منتصف القرن العاشر من الاستيلاء على السلطة في مصر، وتأسيس الأسرة الثانية والعشرين, ونجح في إعادة توحيد البلاد ولكن لفترة قصيرة[115].

وعموما فقد اختلطت بعض العناصر الدخيلة بالمصريين اختلاطا ملحوظا, وتأثرت في هذا العهد بتأرجح موازين القوى بين أقطار الشرق والغرب القديمة, وأخذت مقاليد الحضارة والسيادة والحكم تنفلت منها إلى غيرها بل وتعرضت إلى أكثر من غزو أجنبي, وأخيرا انتهت بانتهاء الحكم المصري القومي بعد حكم ثلاثين أسرة وذلك مع غزو الإسكندر المقدوني لمصر في خريف عام 332ق.م.

2- **نظام الحكم والإدارة في مصر:**

لقد ظل نظام الحكم طوال تاريخ مصر القديمة ملكيا وراثيا استبداديا مطلقا يدافع عن مصالح الطبقات العليا, كما بقيت الأراضي الملكية وثرواتها الهائلة الأساس المادي الذي استندت عليه سلطة الفراعنة.

وقد أطلق المصريون القدماء على بلادهم اسم "كمت" التي تعني باللغة الهيروغليفية الأسود أو الأسمر، في

إشارة إلى الأرض الغنية بطمي نهر النيل. أما الإغريق فقد أطلقوا على مصر اسم "Aigyptes"، واشتق منها فيما بعد اسم مصر في اللغات الأوروبية الحديثة. واشتق اسم مصر الحالي من الكلمة المصرية القديمة "مجر"، أو "مشر" التي تعني المحصن أو المكنون، في إشارة إلى حدود مصر الطبيعية التي حمتها وحصنتها إلى حد كبير من هجمات المعتدين، وعليه فإن مصر تعني المحمية أو المكنونة، فهي كنانة الله في أرضه. وقد انقسمت مصر في تاريخها إلى إقليمين واضحين: أحدهما في الشمال وهو مصر السفلى أو الوجه البحري أو الدلتا، ويمتد من القاهرة الحالية جنوبا إلى شواطئ البحر المتوسط شمالا، ومصر العليا أو الوجه القبلي أو الصعيد، ويمتد من القاهرة شمالا حتى حدود مصر مع السودان جنوبا[116].

وقد كان عهد الدولة القديمة في مصر يمثل قوة الدولة ومركزية حكمها, وقد تدعّمت السلطة الملكية فيه وكان ذلك ضروريا من أجل الوحدة وضمان السير العادي للمشاريع الاقتصادية من زراعة وري وغيرها, وكذلك من أجل الحصول على عدد كبير من الرقيق من أثيوبيا وليبيا وفلسطين, وكذلك من أجل إزالة النظام القبلي. وقد نجح كل من الملك "سنفرو" و"خوفو" وخلفائهما في تحقيق هذه الغايات عموما.

أ- <u>أجهزة الدولة</u>:

أ1- <u>الملك</u>:

لقد كان النظام السياسي في مصر نظاما ثيوقراطيا قائما بأكمله على الملك، فصياغة نظرية سياسية كانت محل اهتمام المصريين الدائم، وقد حاولوا أن يوفقوا بين الدين والسياسة، ويبدو ذلك جليا من ألقاب الملك، والتي تجعل من الملك (حورسا) يحكم على الأرض تماما كما يحكم الإله حورس في السماء[117].

- **<u>مبدأ تفويض السلطة الملكية</u>:**

كان المجتمع المصري يقوم على مبدأ تفويض السلطة الملكية حيث كان الفرعون يمثل المصدر الحي والحقيقي للقانون, وكان يحكم بمراسيم توضع موضع التنفيذ كأنها قرارات موحى بها، ومنذ زمن بعيد اكتسبت الحكومة طابعا أبويا, وكان الأبناء والأقارب يعملون كمستشارين ومعاونين رئيسيين للملك, أما

أبناء الحكام السابقين فكانوا يعينون في مراكز ووظائف ثانوية[118].

- **تأليه الملك:**

لقد كان الملك في عهد الدولة القديمة يؤله وتعطى له ألقاب تدل على العظمة والقوة والجبروت, فكان يلقب مثلا "بالإله العظيم" لذلك فهو "حورس إله السماء" وابن أوزوريس, وكذلك فهو "رع" أو ابن رع، وقد كانت الغاية من هذا التعظيم والإجلال بانتحال صفة الأولوهية هي إخضاع الشعب وإرغامه وتخويفه وإجباره على الطاعة والانقياد لأوامر السلطة الملكية التي تحمل طابع القداسة.

ولذلك فإن اتصاف الملك بالألوهية كان يوجب على الرعية العبادة ومن مظاهر هذه العبادة ما يلي:

- تقبيل الأرض بين يديه أو تقبيل قدميه.
- تشييد الأهرام العظيمة من أجل تمجيد الفراعنة وذلك من قبل العبيد والمزارعين.

أما في عهد الدولة الوسطى فقد تغير الوضع نتيجة التغيرات التي سادت مصر في فترة الانتقال الأول حيث ضعفت السلطة المركزية للملك، واستقل حكام الأقاليم واتخذ بعضهم ألقاب الفراعنة فزالت هيبة الملوك من أنفس الناس، لكن عند استرجاع قوة الدولة وهيبتها في هذا العهد لم يعد الملك إلها فحسب بل أصبح الراعي الصالح المسؤول عن رعيته والمدافع عنها وعن مصالحها داخليا وخارجيا.

وفي آخر مراحل القوة في مصر وهي مرحلة الدولة الحديثة، فقد ظلت السلطة الملكية ذات طابع إلهي, غير أن الملك الإله أصبح يقوم بمهام عسكرية حيث يتولى قيادة الجيش في الحروب باسم الإله "أمون- رع" الذي يمنحه قوة السيف وقوة العلم حتى يحقق الانتصارات على الأعداء.

أما في عهد الانحطاط والضعف، وسيطرة الأجانب فلم يعد الملوك يدّعون صفة الأولوهية أو أبناء الآلهة, ولم يعد أحد ينظر إليهم نظرة التقديس.

- **مهام الملك:** هناك مهام متعددة للملك نذكر منها:

مهام دينية: وتتمثل في تعيين الكهنة وبناء المعابد والمقابر الملكية, والإشراف والمحافظة على العقائد الدينية حيث أن الفرعون يمثل الإله أو ابن الإله.

مهام سياسية وعسكرية: إن مركزية السلطة الملكية في مصر تفرض على الملك أن يكون ملما بكل ما يحدث في أقاليم الدولة وذلك من خلال تعيين معاونيه ومستشاريه الذين يوافونه بكل ما يحدث, أما مهامه العسكرية فتتمثل في الدفاع عن البلاد وحماية الحدود، وقمع الاضطرابات والتمردات الداخلية, وإرسال الجيوش خارج البلاد من أجل جلب الغنائم والعبيد.

مهام قضائية: إن الفرعون في مصر يحمل أعلى سلطة وهي السلطة الإلهية فهو مصدر القوانين والتشريعات والمراسيم التي تستوجب التنفيذ, كما أن قضاة الملك في الأقاليم في عهد الدولة القديمة كانوا يقومون بوظائف الحكام المحليين[119]. وقد خدم القضاء في مصر عموما مصالح الطبقة الأرستقراطية, ولا قيمة عملية لما يرد في النصوص من أن من مهام الفرعون القضائية "إقامة العدل بين الناس ومنع الظلم".

أ2- السلطة التنفيذية:

كان الملك يعهد بالأمور التنفيذية إلى عدد متغير من المعاونين، ويقوم بتغييرهم من حيث المبدأ، ويختارهم من بين أفراد عائلته أو من رجال القصر تبعاً للظروف، وإذا قام الوزير في بعض الأحيان بتعيين بعض المرؤوسين فإنه يتصرف باسم الملك باعتباره ممثلاً له.

وقد كان القصر الملكي مقر الحكم المركزي يوجه منه الفرعون شؤون الدولة وكان الفرعون يعتمد في حكم البلاد على جهاز واسع من الموظفين على رأسهم الوزير الأول، لكن في البداية لم يكن هناك وزيرا واحدا يحتل مركزا بين الملك والفروع المختلفة للإدارة, إذ لم يكن هناك رئيس وزراء. أما الملك زوسر(الأسرة الثالثة) فيعتبر أول من أوجد منصب الوزير.

وفي بعض فترات التاريخ المصري كان الفراعنة يعينون وزيرين أحدهما في "ممفيس" ويشرف على مصر السفلى, والثاني في طيبة ويشرف على مصر العليا, وكان الملك يختار وزيره عادة من بين أفراد الأسرة المالكة

ويجتمع به كل صباح لير فع له تقريرا عن حالة البلاد, ولذلك فإن سلطة الوزير في البداية كانت عظيمة فإنه كان القاضي الأعلى, وكان رئيس إدارة السجلات, وقد كان رئيسا لكل دائرة حكومية, وكان رسله يتجولون في البلاد لينقلوا أوامره إلى المديرين المحليين، ويرفعون له تقارير عن الأحوال التي يشاهدونها, وبسبب أهمية النشاط الزراعي للدولة فقد كانت كل معاملة تتعلق بالأرض تسجل في مكتب الوزير.

وقد كان يطلق على إدارات الدولة اسم "بيوت الملك", وكان الموظفون يتقاضون أجورهم عينا من المحصولات الخاصة بالأملاك الملكية، أو من الضرائب التي تجبى من الشعب. وقد كانت الإدارة عموما تعمل تحت إشراف الوزير, وكانت مقسمة إلى دوائر كثيرة أهمها:

المالية(الخزينة): وهي برئاسة خازن الإله (الملك) وهي المستودع المركزي الذي تجمع فيه جميع الضرائب والمستحقات للدولة, حيث كان يسجل فيها كل ما يرد من ضرائب عينية تنهبها الدولة من السكان.

وزارة الزراعة: والتي كان فيها رئيس الحقول يتصرف بالقضايا الزراعية المحضة، وقد كانت هناك هيئة الأشغال العامة التي تهتم خاصة بأعمال الري, وقد مكن الحكم الممركز من إتقان منظومة الري التي كانت أساس الزراعة، أما فيما يتعلق بالحيوانات فقد كانت توكل لسيد الهبات الملكية[120].

الجيش(غرفة السلاح): لقد كان الهدف الأساسي من تشكيل الجيش هو المحافظة على مصالح الطبقة الأرستقراطية, وقمع الاضطرابات والتمردات الداخلية, وحماية حدود البلاد من الغارات الأجنبية, والقيام بالفتوحات والتوسع من أجل الحصول على الماشية والمعادن الثمينة, وسلب ثروات الشعوب وفرض الجزية على البلدان المقهورة، وبالتالي فقد كانت الغنائم الحربية تمثل مصدرا أساسيا من مصادر دخل الدولة.

3- الحياة الاقتصادية:

أ- الزراعة:

بدأ المصريون انقلابهم الحضري الواسع منذ اهتدوا إلى حرفة الزراعة، ومنذ استفادوا بما ترتّب على

اشتغالهم بها، من تمتعهم بالاستقرار في المعيشة والسكن، وتعودهم على ادخار حبوب الزراعة ومحاصيلها، واضطرارهم إلى التعاون في سبيل استصلاح الأرض واستغلالها واتجاههم إلى التجمع لحماية الأرض ومزروعاتها ومحاصيلها ، وسعيهم إلى تكوين القرى الصغيرة وتأمينها ضد أخطار الفيضان وأخطار الحيوانات البرية ، فضلاً عن أخطار الأغراب والأعداء ، ثم ما ترتب على اشتغالهم بها من زيادة انتفاع أرباب الأسر بمجهود أسرهم في أعمال المزارع ، وحرص القادرين منهم على تأكيد ذاتياتهم وتأمين مستقبل أبنائهم عن طريق حيازة مساحات مناسبة من أرض الزراعة وتربية ما تتطلبه من حيوان الزراعة ، واتجاههم في الوقت ذاته إلى التماس الأمن لأنفسهم ولأسرهم ولملكياتهم الزراعية[121].

وقد كانت مشكلة الزراعة الرئيسية هي الري، وذلك لأن سقوط الأمطار أمر نادر جداً في مصر العليا، ولا تفي بالأغراض الزراعية في مصر السفلى، ولولا النيل لتحولت مصر إلى صحراء قاحلة، فكل عام يرتفع منسوب نهر النيل في شهر حزيران ويفيض في شهر تشرين الثاني، ويخلف على الأرض المحيطة طبقة من الطمي الخصب. وللاستفادة من الفيضان بقدر المستطاع كانت الحاجة تتطلب تنظيم طريقة محكمة للري، يوزع بها الماء على الحقول أو يرفع من مستوى إلى آخر، فإن لم يرتفع النهر إلى المستوى اللازم فإن البلاد تواجه كارثة وتتفشى المجاعة، وحسن إدارة الأراضي يعتبر إحدى منجزات المصريين القدماء العظيمة، وتوجد شواهد نستدل منها على وجود كوادر إدارية في مصر مخصصة لأعمال صيانة شاطئ نهر النيل والقنوات والسواقي، والإشراف المنظم على قسمة الأراضي.

وكان على كل زارع أن يؤدى له ضريبة سنوية عينية تتراوح ما بين عشر المحصول وخمسه . وكان أمراء الإقطاع وغيرهم من الأثرياء يملكون مساحات واسعة من الأرض. وفي وسعنا أن نتصور ما كانت عليه أملاكهم من الاتساع إذا علمنا أن واحداً . منهم كان يملك ألفاً وخمسمائة بقوة ، وكانت الحبوب والسمك واللحوم أهم الأطعمة. وقد عثر على بقية من نقش يحدد ما يسمح للتلميذ أن يأكله ويشربه ، وقد ذكر فيه ثلاثة وثلاثون نوعاً من لحم الحيوان والطير ، وثمانية وأربعون صنفاً من الشواء ، وأربعة وعشرون نوعاً من الشراب، وكان الأغنياء يبلعون طعامهم بالنبيذ، والفقراء بشراب الشعير المخمّر[122].

وكانت الدورة الزراعية في مصر تنقسم إلى ثلاثة مواسم كل منها أربعة أشهر: موسم الفيضان (آخت) وفيه تكون الأرض مغمورة بالماء والنشاط الزراعي معطل، ثم يأتي موسم الزراعة (برت) ويتم فيه بذر الحبوب، وأخيراً موسم الحصاد (شمو)[123].

وفي موسم الحصاد، تجمع الحبوب في سلال كبيرة وتنقل إلى أرض البيدر، ثم تطأ الثيران الحبوب ثم تذرى وتتم عملية التذرية بقذف الحبوب في الهواء بواسطة مذراة خشبية، ثم تكوم الحبوب وتُكال وتُحمل الحبوب بعد ذلك إلى الشونة ، وهو بناء مخروطي مبني من اللبن تفرغ فيه الحبوب من ناحية الفوهة وكانوا يصعدون إليها عن طريق درج، وحين يراد أخذ كمية منه كانت تسحب من باب عند القاع. وفي فترة نمو الزرع ينصرف الفلاحون إلى صيد السمك والطيور والحيوانات كما كانوا يُستدعون للعمل كسخرة في مشاريع البناء الحكومية.

ب- <u>الصناعة</u>:

كان الصناع المصريون يتلقون مهنتهم بالوراثة عن آبائهم ويورثونها بدورهم لأبنائهم من بعدهم، وكان هناك الصناع الأحرار الذين يعملون لحسابهم الخاص ، والصناع الذين يعملون في ورشات المعابد والقصور الملكية ، وقد تنوعت وتعددت الصناعات في مصر وأهمها :

<u>الصناعة المعدنية</u> : كان أول معدن اكتشفه المصريون هو النحاس، وعثروا عليه الالف الرابعة قبل الميلاد في سيناء و الصحراء الشرقية. وفي أول الأمر صنع المصريون النحاس (كالأوعية والأسلحة وأدوات الزراعة والصناعة) بواسطة تطريقه، ثم تعلموا فيما بعد صهره وصبه في قوالب خشبية أو فخارية. وفي عهد الدولة الوسطى اكتشف المصريون صناعة البرونز بخلط النحاس مع القصدير ، أما الحديد فلم يستعمل في مصر الا في عهد الدولة الحديثة. ولكن الذهب استعمل منذ عهد الدولة القديمة، وقد وجد الذهب في المناطق الجنوبية المحصورة بين نهر النيل والبحر الأحمر، وعثر عليه مع عروق الكوارتز أو مختلطة بالرمال والحصى التي فتتتها المياه من الصخور، واستعمل الذهب في صناعة الحلى وفي تطعيم وتزيين الأثاث والأدوات ، كما صنعت منه حلقات قطر الواحدة 12 سم، تستعمل كمقياس للتبادل

التجاري، وكان المصريون يصنفون الذهب إلى أربعة أنواع: ردئ ، وجيد ، وجيد مرتين، وجيد ثلاث مرات . أما الفضة فلم تكن تستخرج من مصر لندرتها ، بل كانت تستورد من البلاد المجاورة، وتستخدم كالذهب في صناعة الحلي وتطعيم المعادن وتلبيس الاناث والادوات[124].

صناعة الزجاج والقاشاني: أظهر المصريون براعة واضحة في التزجيج، فقد اكتشفوا قبل الأسرة الأولى طريقة تزجيج الأحجار، ثم نجحوا في التقدم بهذه العملية حتى أصبحت لهم شهرة خاصة في تزجيج المركبات التي نعرفها تحت اسم القاشاني، والمكونة من مادة رملية صوانية، تربط جزيئاتها مادة صمغية من نوع ما وتغطى بطبقة زجاجية لامعة ملونة، وأجمل ألوان التزجيج التي وصلتنا هي الأزرق والأخضر، كما هي الحال في هرم زوسر ،حيث توجد غرفة غطيت جدرانها بألواح القاشاني الأزرق، وعثر في تل العمارنة على صور فاكهة وزهور وجعالين مصنوعة من حجر السيتاتيت وتماثيل صغيرة تسمى الأوشابتي تعني المجيب، أي ذلك الذي يستجيب لدعوة الميت)[125].

صناعة النسيج والورق والجلود: مهدت لصناعة النسيج في فجر التاريخ صناعات السلال والحبال والحصير واعتمدت أولاها على جدل خوص النخيل والدوم وتضفيره ، وقليلاً ما اعتمدت على تضفير نبات الحلفاء وألياف البردى وعيدان الكتان .

واستخدم المصريون السلال في بداية أمرهم على هيئة الزنابيل لخزن الحبوب وعلى هيئة أطباق من الخوص للمأكولات الجافة ، اتخذ بعضها هيئة القوارب ، ثم خدمت السلال أغراضاً أخرى خلال فجر التاريخ ، فصنعها أصحابها من ألياف البردى وعيدان البوص على هيئة توابيت صغيرة لدفن الأطفال، وعلى هيئة صناديق صغيرة لحفظ الأدوات المنزلية.

وشاركت صناعة الحبال صناعة السلال قدمها ، واعتمدت بدورها على جدل ليف النخيل وألياف الحلفاء، والكتان، والبردى، والحشائش الطويلة الصلبة، واستخدمت في الربط والحزم والحمل وفى تضفير حزم البردى المستخدمة في صناعة القوارب ، واعتمدت صناعة الحصير في بداية أمرها على

البوص والحشائش المفتولة أو المجدولة ثم على السمار، وخدمت أغراضاً كثيرة في حياة أهلها ، فكانوا يتخذونها فراشاً وغطاء في البيوت والمقابر ، ويكسون بها الجدران الداخلية في البيوت وجوانب مطامير الغلال وجوانب حفر الدفن، واستعملوها لتسقيف الأكواخ والمساكن الخفيفة ، ثم في ستر مداخل البيوت الصغيرة ، وكانوا ينسجونها على أنوال أفقية ولا تزال كذلك حتى الآن.

واستفادت صناعة النسيج من هذه الصناعات الثلاث ، وزادت عليهم مرحلة الغزل والتمشيط واستخدام الفلكة والمغزل فضلاً عن النول . واعتمدت أساساً على صناعة الكتان، وإذا كانت طريقتها حينذاك هي الطريقة نفسها التي صورتها مناطق العصور التاريخية، فإن مراحل الإعداد لها كانت تبدأ باقتلاع سيقان الكتان من جذورها وتجميعها وربطها في حزم، وتركها تجف ، ثم تمشيطها وتعطينها حتى يلين لحاؤها، وطرقها بالمطارق وكشط اللحاء عنها، ثم تندية أليافها وفتلها أو غزلها[126] .

كما عرف المصريون صناعة المنسوجات الكتانية منذ العصر الحجري الحديث، ولم يستعملوا المنسوجات الصوفية الا قليلا ، أما الحرير فلم يستعمل في مصر الا بعد الاحتلال الفارسي ، وكان يستورد من الصين ولا يصنع في مصر أو في أي مكان آخر عدا الصين، وكان زي اللباس عبارة عن ثوب طويل حتى الركبتين تمسك به حمالات فوق الكتفين.

والمصريون أول من صنع الورق من نبات البردي واستعمله في الكتابة. وقد ظل المصريون يصدرون ورق البردي إلى البلدان الأخرى حتى العصور الوسطى ، وكانت تصنع من البردي أيضا الصناديق والحبال والنعال والحصر والقوارب ، كما استعملت جلود الحيوانات في صناعة الأحذية والالبسة والتروس والاحزمة وغير ذلك .

ت- <u>التجارة</u>:

لم يعرف المصريون العملة طوال تاريخهم الفرعوني، ولم تسك النقود في مصر قبل الأسرة الثلاثين (380-343 ق.م) والأكثر من ذلك أن العملات الأجنبية المسكوكة لم يقبل المصريون على استخدامها، بل

كان يتاجر فيها مثل السبائك لما تحتويه من المعدن[127]. وتنقسم التجارة في مصر إلى قسمين:

- **التجارة الداخلية:**

كانت التجارة الداخلية في مصر ضعيفة نسبيا لان الملك وكبار رجال الدولة والمعابد كانت لهم أراضيهم ومزارعهم ومصانعهم. اما الموظفون فكانت الدولة تدفع لهم رواتب عينية من غذاء ولباس. وهكذا اقتصرت التجارة الداخلية على بعض افراد الطبقة الوسطى من اصحاب المهن وصفار الفلاحين الاحرار . وقد وجدت على جدران بعض المقابر مشاهد تصور أسواق البيع والشراء وتبادل العطور والزيوت والحلي والاحذية والانسجة والاواني وبعض المواد الغذائية والادوات .

كان النقل النهري هو الأساس في التجارة الداخلية، وتدل الشواهد أن النقل النهري كانت تشرف عليه الدولة، التي كانت تؤجر طاقم البحارة لكل مركب، لكن التجار المحليين كان لهم قدر من الحرية والاستقلالية لتحكمهم في عملية تداول السلع[128].

- **التجارة الخارجية:**

كانت التجارة الخارجية من الاحتكارات الملكية، لذلك كانوا يخضعون في الاستيراد لإشراف الخزانة العامة، وفي التوزيع الداخلي لإشراف الوزير والسلطات المحلية والمعابد الكبرى. ويوجد بالمتحف المصري بالقاهرة قائمة لبعض السلع وكمياتها معظمها من اللحوم التي سلمت للتجار وأسماؤهم جميعاً مسجلة، ويحتوي النص أيضاً على الأنصبة وقيمتها بدقة موزعة حسب الفصل والشهر ولم تحدد السنة.

وقد اهتم الملوك بإرسال البعثات الى البلدان المجاورة لتأمين حاجات وكماليات القصور الملكية والمعابد. فكانت ترسل الحملات التجارية الى فينيقية لاستيراد الاخشاب اللازمة لصنع السفن ، و الحملات الحربية أو التجارية الى بلاد النوبة بقصد الحصول على الغنائم من خيرات تلك البلاد وبضائعها النادرة . ويمكن الإشارة إلى أن الملكة "حتشبسوت" أرسلت حملة بحرية تجارية الى بلاد "البنط" أو "بونت" عادت محملة بالبضائع المتنوعة[129] .

وقد جاء في النص المنقوش على جدران معبد الدير البحري الذي أمرت ببنائه الملكة حتشبسوت سجل بأسماء المواد المنقولة من بلاد "البنط" وهو على الشكل التالي : « حمولة السفن من روائع بلاد البنط : منها أشجار أرض الآلهة العطرة الجميلة ، كميات كبيرة من شجر المر ومن شجر الأبينوس ، عاج نظيف ، خامات الذهب الآسيوية ، اشجار متنوعة ، طيوب ، بخور ، مواد لتكحيل العيون ، بلابل، قرود، كلاب صيد، جلود النمر ، أناس مع أولادهم - هذا ما لم يجلبه احد من قبل لأي ملك من الملوك القدامى » وفي أواخر عهد الدولة الحديثة ازدادت علاقات مصر التجارية مع الشعوب والبلدان المجاورة ، وخاصة مع كريت، وجزر وشواطئ بحر ايجه، وقد لعب اليونانيون دورا هاما في تجارة مصر الخارجية ، وأسست الجالية التجارية اليونانية مركزا تجاريا في ميناء "نوكراتيس" غربي الدلتا في العهد الصاوي . وكان للنيل والبحر الأحمر والمتوسط أهمية كبرى في التجارة ، أما الطرق البرية فكانت قليلة الاستعمال لصعوبة اجتيازها.

4- <u>الحياة الاجتماعية والدينية:</u>

أ- <u>الحياة الاجتماعية:</u>

إن ندرة الوثائق وقلة المصادر لا تساعدنا على وضع صورة واضحة عن التركيب الطبقي للمجتمع المصري القديم، ومع ذلك فقد قسم الباحثون المجتمع المصري إلى عدة طبقات اجتماعية هي:

- **<u>طبقة النبلاء:</u>** وتضم الملك وأفراد عائلته وكبار الموظفين والوزراء وقادة الجيش والشرطة.

- **<u>طبقة الكهنة:</u>** كانت هذه الطبقة مستقلة بأمورها وكانت تتمتع برعاية الملوك وحكام الأقاليم، وازداد نفوذ الكهنة في الدولة الحديثة حتى وصلوا إلى سدة الحكم في الأسرة الحادية والعشرين.

- **<u>طبقة الكتّاب:</u>** حدث في نهاية عصر الأسرة الثانية الكثير من التطوير في الخط الهيروغليفي ما يدل على اهتمام المصريين بالكلمة المسجلة وإدراكهم لتأثيرها على عقول الناس، ومنذ ذلك الوقت أخذ الكاتب المصري يحتل مكانة هامة في المجتمع المصري، حتى أن كبار رجال الدولة حملوا لقب كاتب، وصوروا

أنفسهم على جدران مقابرهم على هيئة الكاتب الجالس وفي حجره لوح الكتابة وأمامه أدوات الكتابة. فمثلاً صُوِّر الوزير حسي رع (وزير الملك زوسر في عصر الأسرة الثالثة وهو يحمل أدوات الكتابة مع لقب كبير كتاب الملك[130].

- **طبقة الفلاحين:** كانت تمثل غالبية الشعب المصري من الناحية العددية، وعلى ما يبدو كان الفلاحون في مصر على نوعين : فلاحين أحرارا ، وفلاحين مرتبطين بالأراضي التابعة للملوك والامراء والاغنياء والمعابد ، فالفلاحون الأحرار كانوا يملكون قطعا صغيرة من الأرض يقومون بفلاحتها وزراعتها لحسابهم الخاص ، ولكنهم يدفعون عنها ضريبة عينية معينة للدولة. وإننا نلاحظ تعسف جباة الضرائب وسوء معاملتهم لهؤلاء الفلاحين الأحرار من خلال المقطع التالي المأخوذ من وثيقة مصرية بعنوان « نصائح وإرشادات مدرسية) ... الكاتب الذي يرسو الى الشاطئ ليحسب الضريبة المفروضة على المحصول يرافقه حراس يحملون القضبان وشرطة من النوبيين يحملون العصي ، وهم يقولون للفلاح أعطنا الحبوب ، والحبوب غير موجودة ، فيضربونه ويربطونه ويرمونه في البئر ويغطسون رأسه ، وامرأته تربط أمامه . وأولاده يشردون في الطرقات . حتى ان جيرانهم يتخلون عنهم ويهربون فتتلف.... حبوبهم ... »[131].

أما الفلاحون المرتبطون بأراض ليست لهم فقد تشكلوا من الفلاحين الذين لا ملكية لهم بالأساس ومن الفلاحين الذين كانوا ملاكا أحرارا، ولكنهم افتقروا وفقدوا املاكهم وحريتهم ، أو من الذين أجبروا على الارتباط بأراضي الآخرين بصورة أو بأخرى . وقد كان الفلاحون المرتبطون بالأرض يعملون في أراضي الفرعون أو المعبد أو الأمراء، مقابل حصة من الإنتاج لهم، وكان هؤلاء الفلاحون لا يحق لهم ترك الأرض التي يعملون عليها إلا بإذن سيدهم صاحب الأرض، فإذا بيعت الأرض كانوا يباعون معها، وإذا أهديت يهدون معها.

طبقة العمال: لقد وصلتنا مجموعة مستندات قانونية وسجلات مكتوبة على البردي أو شظايا الحجر الجيري، نستطيع منها أن نعرف أن الدولة كانت تستخدم العمال، وأن أجورهم لم تكن سوى تعيينات

يأمر بصرفها الفرعون بواسطة الوزير، وتشمل حبوباً وأسماكاً وخضراً وزيتاً وأقمشة، وحين بدأت الإدارة تضعف نرى هذه الإمدادات تنضب ما دعا العمال إلى الإضراب، كما حدث في عهد "رعمسيس الثالث".

وكانت أشق صور العمل التي شغلت بها طبقات العمال هي بناء الأهرامات والمعابد الضخمة ونحت المسلات وجرها من محاجر أسوان إلى طيبة، ونحت المقابر الصخرية وزخرفتها في وادي الملوك، وخاصة "مقبرة ستي – الأول" - الأسرة التاسعة عشرة - ، فهذه المقبرة تمتد 230 قدماً في الصخر الصلب عن طريق ممرات وسراديب تغطي جدرانها النقوش الملونة والكتابات[132].

-**طبقة العبيد**: كانت مهمتها العمل في بيوت ومزارع طبقة النبلاء، وتشكلت بصورة رئيسية من أسرى الحروب من النوبيين والليبيين والأسيويين، وكان عدد العبيد يزداد وينقص تبعا لعلاقات مصر الخارجية وما تقوم به من حروب توسعية.

وقد كان معظم العبيد يسخرون لخدمة الفرعون والأسرة المالكة والمعابد، فالعبيد يستخدمون في القصور الملكية وفي العابد أو يشتغلون في الاراضي التابعة للملك وللمعابد ، كما يعملون في المصانع والناجم وجميع المشاريع التابعة للدولة ، كذلك كان قسم من العبيد يستخدم في الجيش ، والبعض منهم يتسلم بعض الوظائف الحكومية ، وكان الفراعنة يمنحون بعض العبيد الى الأمراء والحكام والقادة العسكريين وغيرهم من الاشخاص المقربين هدايا لهم ، وفيما بعد راجت تجارة العبيد فأخذ الاغنياء من المصريين يشترونهم ويلحقونهم بخدمتهم ، وكانت تطلق على العبيد عادة كلمة رؤوس تشبيها بالحيوانات ودلالة على احتقارهم .

ب- الحياة الدينية:

كان للبيئة المصرية التي تتميز بانتظام أمورها واستقرار أحوالها الأثر الكبير الواضح في معتقدات المصريين وتفكيرهم الديني، فقد كانت مظاهر الطبيعة أول ما أشعر المصري بوجود الآلهة، مثله في ذلك الوقت مثل الشعوب الأخرى القديمة، فكانت الأشجار والينابيع والأحجار والتلال والطيور والحيوانات

مثله أو مخلوقات حلت فيها قوى طبيعية غريبة لا سلطان له عليها، ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر في عقل الإنسان، وصارت مظاهر الإلهية الأولى في نظره هي القوة المسيطرة على العالم المادي .

وقد أدى شعور الإنسان الغريزي بالخوف من المجهول إلى تقديسه لكل القوى التي تؤثر في حياته دون أن يتعرف على كنهها، واعتقد بذلك بوجود تلك القوى التي كوّن لها صورا في ذهنه.

وترجع أصول الفكر الديني المصري القديم إلى عصور ما قبل التاريخ ولكنها تتبلور في بداية العصر التاريخي ، مع احتفاظها ببعض التقاليد الدينية المنتمية إلى عصور ما قبل الأسرات بشكل مباشر أو غير مباشر، ويبدأ الفكر الديني المصري القديم في الاستقرار عندما نتجه المقاطعات المصرية في وادي النيل الأدنى إلى اتخاذ آلهة محلية، لكل مقاطعة إلهها الخاص بها . ولا شك أن تلك الآلهة المحلية كانت نتيجة تجارب طويلة اتجه الانسان على أثرها في تجسيم القوة الخفية التي تتحكم في حياته في معبود معين ، وحاول اتحاد بعض الأشكال الحيوانية أو غيرها كرموز لها، كنوع من تقريب ذلك المعبود إلى المجتمع الانساني الزراعي بصفة خاصة ، وكان ذلك أثناء عصور ما قبل الأسرات[133].

وقد بدأت تواجه تلك المعبودات المحلية مشكلة جديدة نتيجة الاقتراب من بداية العصر التاريخي حيث اتجهت تلك المقاطعات إلى الاتحاد السياسي التدريجي، إلى أن وصل إلى مملكتي الشمال والجنوب ، ثم مملكة واحدة متّحدة. وحدث نوع من التنافس بين المقاطعات من حيث رغبة كل مقاطعة رفع شأن معبودها والوصول به إلى الأولوية على المعبودات الأخرى، وتحقيقاً لذلك الاتجاه، عمل كهنة بعض المعبودات إلى تمجيد آلهتهم بكتابة الأساطير المختلفة، وعلى الرغم من سيادة بعض المعبودات على معبودات أخرى واقترابها من الأسرة الحاكمة، فقد ظلت المعبودات الأخرى بكيانها المحدود، آملة الوصول إلى مستوى أكثر رفعة[134].

<u>الآلهة</u>: يمكن تقسيم الآلهة إلى آلهة كونية وآلهة محلية.

انتشرت عبادة الآلهة الكونية في كافة أرجاء ،مصر ، كالإله رع إله الشمس والإله أوزيريس... مثلت الآلهة العامة في صورة إنسانية وحيوانية، فإله الشمس مثل في صورة إنسان برأس صقر، وإلهة السماء ظهرت في

هيئة بقرة. ويبدو أن هذه الآلهة وغيرها من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة، قد عبدت في بادئ الأمر من دون أن يكون لها معابد يلجأ الناس إليها، حيث كانت تعبد في الهواء الطلق، ثم اتخذ المصريون معابد لعبادة الآلهة المحلية، وقد اقتصرت عبادتها على المناطق التي ظهرت فيها، واتخذت رموزا لها من حيوانات وطيور وزواحف.

عبادة الشمس الإله "رع":

الإله "رع" يعني اسمه "الشمس" فلقد قامت الشمس بدور كبير في الفكر الديني المصري منذ أقدم العصور، إذ تتميز الشمس في مصر بسطوعها ووضوحها وظهورها طوال العام، وتأثيرها الفعال في الإنتاج الزراعي، مما جعل المصريين يصورونها في هيئة إله عظيم، ويحتمل أن أقدم الصور التي تخيلها المصريون لإله الشمس يرجع تاريخها إلى العهد الذي كان لا يزال فيه مصريو العصور الحجرية يعيشون عيشة الصيد، في مناقع الدلتا، وذلك عندما تخيلوا إله الشمس في شكل صياد يدفع أو يجدف في زورق مؤلف من حزمتين من الغاب ليعبر به مستنقعات الغاب[135].

وأقدم رموز "رع" قرص الشمس وهو علامة مقاطعة عثر عليها على قطعة فخار من عصر حضارة جرزة، ومثل رع أحياناً كقرص بسيط على قارب وأن صور غالباً على هيئة رجل متوجة رأسه بقرص الشمس التي أحيطت بالحية التي تنفث النيران على أعداء "رع" ، وكان "رع" في هذه الهيئة يعرف على أنه "رع حور أختى"، وهو يحمل علامة عنخ (الحياة) و (واس)) (الصولج)، ومثل كذلك كطفل في زهرة اللوتس، ولكنه لم يصور على شكل تمثال إلا في حالته "كآمون رع"[136]. وقد أقام المصريون للإله "رع" معبدا ذا طابع خاص، لم يكن به صورة له، وإنما حوى قطعة مقدسة من حجر أطلق عليها "بن بن" كانت توضع في فناء مكشوف، وقد اختفت جميع المعابد المبنية على هذا الشكل، وإن شيّد ملوك الأسرة الخامسة معابدهم على هذا النمط[137].

الحياة الآخرة:

كان للمصريين توق لضمان الحياة الأبدية لأنفسهم بعد الموت، وقد تابعوا هذه الغاية التي تلي الوفاة

بجد يفوق جهدهم في ملاحقة أي غاية قد تتحقق في مدى الحياة البشرية، فقد كانوا ماديين في تفكيرهم بحيث أنهم كانوا يتلذذون بالأشياء المادية - الطعام وحيازة الأشياء - التي يمكن الحصول عليها في هذه الحياة، وقد تصوروا الخلود بعد الموت في إطار من التمتع بالطيبات من النوع نفسه، وما دامت الحياة قبل الموت قصيرة، وبما أن الحياة بعد الموت قد تكون أبدية ، فقد انفقوا من المال والجهد على القبر أكثر مما أنفقوا على البيت ، وعلى تحنيط الجثة أكثر منه على تزيين الجسم الحي، وعلى هذا فبدلا من أن يخشوا فكرة الموت ، كانوا يسرون بانتظارها عقليا عن طريق الإعداد لدور من الحياة أطول وأكثر أهمية، إذ كانوا يعتقدون أن هذا الدور يدشن الموت طريقه لهم ، فيما لو أعدوا أنفسهم بالعمل اللازم له مسبقا[138] .

ولم تكن عقائد المصريين بالحياة بعد الموت وحدوية، كما أنها لم تكن منسجمة واحدتها مع الأخرى . فالمحافظة الطبيعية على الجثة المحنطة في قبر ضخم ، كان يتفق مع عقيدة ترى أن مثل هذا العمل يمكن لجزء من الروح أن يصاحب الجثة، وكانوا يعتقدون أيضا بأن الفرعون، على كل حال ، سينضم الى بقية الآلهة بجزء آخر من روحه . بل إنهم كانوا يقبلون عقيدة بدائية همجية، وهي أن الفرعون سيلهم في الواقع رفاقه من الآلهة وبذلك يستولي على قوتهم، وثمة عقيدة ثالثة كانت تقول بأن "اوزيريس" روح الحياة النباتية الذي مات ثم بعث حيا، سيمكن لعباده من أن يحققوا مثل هذا التجول ، وأنه عندها يدخلهم الى الجنة الخضراء في الغرب ، حيث يقيمون معه في سعادة دائمة الى الأبد[139] .

المحور السابع: الحضارة الإغريقية

تمهيد: لقد انتقل المجتمع الأوربي من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية ببزوغ فجر المدنية الإغريقية, لكن الأكيد أن كلا من مجتمعي بلاد النهرين ومصر قد سبقا بهذه الخطوة ظهور المدنية الإغريقية بما يقرب من ألفين سنة وهو ما تبينه الوثائق المكتوبة التي عثر عليها في مناطق كثيرة في أوربا والتي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد فقط.

1- الموقع والتوزيع الجغرافي:

إن بلاد اليونان في العصور القديمة لم تكن تشكل كلا متكاملا أو جغرافية موحدة وإنما كانت تنقسم إلى ثلاث مناطق رئيسية هي:

أ- القسم الجنوبي من شبه جزيرة البلقان وهو ما يمكن أن نطلق عليه بلاد اليونان الأصلية.

ب- مجموعة الجزر الكثيرة التي تتركز في بحر إيجة الذي يقع بين شبه جزيرة البلقان من الغرب وشبه جزيرة آسيا الصغرى من الشرق.

ت- الشريط الساحلي الغربي لآسيا الصغرى الذي هاجر إليه اليونانيون واستقروا فيه بشكل كبير بحيث تحول إلى منطقة يونانية صرفة في فترة مبكرة من تاريخهم[140].

إن بلاد اليونان من الناحية التضاريسية ذات طبيعة وعرة في عمومها, فغالبية سطحها تمثلها الجبال التي تمثل ما يعادل أو يفوق 5/4 من سطحها, وهي على هيئة سلاسل جبلية تخترقها في كل الاتجاهات تقريبا بشكل يجعلها تنقسم انقساما طبيعيا إلى مناطق صغيرة تكاد تكون منعزلة عن بعضها ومن هذه السلاسل مثلا (جبال جرانية, جبال كراته, جبل هليكون...)[141]. كما أن معظم الأنهار الموجودة بها ذات مجاري متقطعة وغير صالحة للملاحة مما يجعلها عوامل فصل وليست عوامل وصل بين هذه المناطق الصغيرة التي فرقت بينها الجبال. وقد أدت هذه العوامل إلى ظهور النزعة الانفصالية منذ بدأ تاريخ اليونان وأسهمت بشكل كبير في ظهور ما يسمى بنظام المدينة الدولة.

2- السكان:

إن بلاد اليونان سواء في قسمها الأصلي في جنوبي شبه جزيرة البلقان, أو في جزر بحر إيجة, أو على الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيا الصغرى قد دخل في تكوينها السكاني عدد من الهجرات والتحركات السكانية التي كانت عنصرا أساسيا في تكوين المقومات النهائية لأبعادها السكانية.

وقد كانت القبائل الإغريقية فرع من المجموعة الناطقة بالآرية وهم خاصة الأيوليون والأيونيون, وقد انحدروا إلى المدن والجزر الإيجية قبل حوالي 1000ق.م. وفي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد عاصرت منطقة شرق البحر المتوسط هجرات كبرى سقطت بسببها الدولة الحيثية في آسيا الصغرى, واجتاحت الهجرات سوريا وفينيقيا ووصلت إلى مصر نفسها, وكانت الهجرة الدورية واحدة من تلك الهجرات الكبرى, ولكنها كانت بالمقارنة بغيرها محدودة بالجزء الجنوبي لشبه جزيرة البلقان, وكان لها أثر كبير بالنسبة لتاريخ بلاد الإغريق, وقد تمكن الدوريون من القضاء على النظام الاجتماعي الذي كان سائدا في بلاد الإغريق من قبل, ولأنهم كانوا متخلفين في الحضارة نسبيا عن الشعب المغلوب فإنهم نقلوا عنه الكثير من عناصر ونظم حضارته.

3- مصادر التاريخ الإغريقي:

أ-**المصادر الأثرية:** وهي المخلفات الأثرية التي أسفرت عنها نتائج البحث الأثري ومنها المباني والتماثيل والمقابر والمعابد وأشهرها القصر الملكي المسمى قصر "كنوسوس" knossos"" الذي يعود إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد, ومعبد البارثينون في "الأكروبوليس" Acropolis"" في أثينا، والذي تدل الرسومات والنحت البارز الموجود به على معتقدات اليونانيين الأسطورية والذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد. بالإضافة إلى المصادر الأخرى من عملة وفخار وغيرها[142].

ب-**المصادر الكتابية:** وهي كتابات القدامى المعاصرين للأحداث الذين حاولوا تسجيل كل ما يتعلق بالمجتمع اليوناني في عصورهم أو العصور السابقة عليهم، ومنهم المؤرخون الذين كتبوا في تاريخ اليونان

وأبرزهم "هيرودوت" الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد, و"ثوكيديدس" الذي عاش أيضا في منتصف القرن الخامس و"اكسينوفون" وغيرهم. بالإضافة إلى الخطباء السياسيين الذين كانوا يلقون خطبهم أمام المجالس الشعبية والهيئات السياسية والقضائية مثل: "بركليس" و"ديموستينيس"، وكذلك الفلاسفة والمفكرون من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم[143].

ت-كما أن هناك مصدرا آخر يتمثل في الآداب وهو مصدر غير مباشر، وينقسم إلى شعر الملاحم والشعر الغنائي والمسرحي ومن أمثلته الأشعار الهوميرية وخاصة الإلياذة والأوديسا.

4- <u>نظام المدينة الدولة</u>:

إن نظام المدينة الدولة كصيغة سياسية وما يتعلق به من أوضاع اقتصادية واجتماعية لم يظهر في المجتمع اليوناني إلا منذ أوائل القرن الثامن قبل الميلاد، لكن القرنين السابقين لهذا التاريخ وهما العاشر والتاسع شهدا الفترة الممهدة والمؤدية إلى ظهور هذا النظام، فبعد انهيار الحضارة الموكينية مع مطلع القرن العاشر قبل الميلاد، وسيادة العنصر الدوري ساد التخلف والانهيار بلاد اليونان لمدة 200 سنة تقريبا، وقد شهدت هذه الفترة عموما امتزاج العناصر الجديدة بالسكان القدامى مما أدى إلى ظهور مجتمع جديد كانت أهم دلائله نظام المدينة الدولة.

لقد بدأ القرن العاشر قبل الميلاد وبلاد اليونان تمر بحقبة من التخلف نتيجة غزو القبائل الدورية, ولكن هذا الوضع سرعان ما بدأ في الانحسار بعد أن أخذت الأمور تستقر في هذا المجتمع, ففي بعض المناطق مثل (تساليا وأرجوليس ولاكونيا وكريت) أصبح الغزاة الدوريون طبقة حاكمة وحوّلوا السكان الأصليين في هذه المناطق إلى عبيد، ولكن في أغلب المناطق استقر الغزاة إلى جانب السكان الأصليين وأخذوا يندمجون معهم ليتوصل المجتمع إلى صيغة من التعايش والتنظيم[144].

وقد كانت بداية هذا النظام عبارة عن تجمعات سكانية قبلية في تكوينها، وكان كل تجمع يتكون من الملاك الكبار للأراضي الزراعية والرعوية، وكان صاحب أكبر مساحة من الأراضي يرأس التجمع القبلي

الذي يوجد فيه، فهو يمثل القائد العسكري، وهو كذلك مصدر التشريعات، كما أنه يمثل السلطة الدينية، وقد كان إلى جانبه مجلسان أحدهما للأعيان والأرستقراطيين والآخر للعامة من السكان، ويمكن في هذا الصدد أن نتصور الدور الذي لعبه الملك في إطار حرصه على تجميع وتوحيد التجمعات السكانية المجاورة له في كيان سياسي واحد يسيطر عليه هو ورجاله.

ولعل هذا النوع من التفاعل كان يتم بشتى السبل أحيانا بالسلم وأحيانا بالقوة, وأن مثل هذه المحاولات قد تمر بفترة تطول أو تقصر من التجربة والخطأ قبل أن تصل إلى التوحيد النهائي للمنطقة.

إن هذا التطور الأساسي الذي حدث في عهد الحكومات الملكية, وهو تطور خطت فيه المدينة خطوات واسعة على طريق التحول من مجرد مفهوم مكاني يعطي معنى الجوار السكاني فحسب, إلى مفهوم سياسي يعطي معنى الانتماء التنظيمي بكل ما يعنيه من روابط وحقوق وحدود بين هذه المدن[145].

أما بعد أن انتهت الفترة التكوينية لمجتمعات المدينة الدولة اليونانية، أصبح العامل الاقتصادي هو الذي يحكم الأمور في هذا العالم الجديد، حيث بدأ الأرستقراطيون الذين يملكون الأرض والثروة يتطلعون إلى دور جديد يلعبونه في هذا المجتمع، وبدأوا في انتزاع سلطات الملك الواحدة بعد الأخرى سواء كانت عسكرية أو سياسية أو قضائية، حتى إذا جاء القرن السابع قبل الميلاد كانت الحكومات الملكية قد سقطت في أغلب المدن اليونانية لتحل محلها حكومات جماعية تتكون من الطبقة الأرستقراطية التي كان أفرادها يسيطرون على المورد الاقتصادي الرئيسي وهو الأرض، في وقت كانت فيه التجارة لا تزال تخطو خطواتها الأولى كمورد من الموارد الاقتصادية في المجتمع اليوناني حين تبرز بصورة أوسع في القرن السادس قبل الميلاد، حيث صارت طبقة التجار لا تفتقر إلى الثروة وهو ما جعلها تشارك في الحكم تأمينا لمصالحها وإثباتا لوجودها، وهكذا ظهرت حكومات جديدة مشتركة من تحالف الأرستقراطيين والتجار وهي الحكومات التي يطلق عليها اسم الحكومات الأوليجركية (oligarchie) أو حكومات الأقلية[146].

5- تأثر وتأثير الحضارة اليونانية:

إن المجتمع اليوناني لم يكن مجتمعا منطويا ومنغلقا على نفسه, تنحصر إبداعاته وقيمه الحضارية في المنطقة التي نشأ فيها في شمال المتوسط, بل إنه خرج عن إطاره هذا فتأثر وأثر, حيث كان هذا المجتمع منفتحا على غيره من الحضارات التي سبقته في مضمار التطور والنشاط الحضاري الكبير في منطقة الشرق الأدنى مثل بلاد النهرين ومصر وسوريا وآسيا الصغرى.

لكن حين وصل هذا المجتمع إلى مرحلة من التطور والنضج بدأ يؤثر في غيره وينشر حضارته في المناطق المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط في العصر القديم، بل وامتد هذا التأثير الحضاري إلى العصور التالية في مناطق أخرى قريبة أو بعيدة عن حوض المتوسط، بل وأكثر من ذلك فإن تأثير هذه الحضارة لا يزال مستمرا في عالمنا المعاصر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وهذا نتيجة للتطور الكبير الذي بلغته هذه الحضارة، وهذا الموروث الذي تناقلته الأجيال باستمرار إلى يومنا هذا.

لقد تأثرت الحضارة اليونانية كثيرا بالحضارات الشرقية، فعلى سبيل المثال أخذ اليونانيون مبادئ الرياضيات التي لم يقتصر فيها أبناء بلاد النهرين على نتائج التجارب العلمية وإنما وصلوا فيها إلى النظريات.

فعالم الرياضيات الشهير "فيثاغورس" أخذ نظريته مما توصل إليه العراقيون القدامى قبله بما يزيد عن ألفين سنة، والدليل على ذلك النقش الأصلي الموجود على لوح من الطين المحروق وهو محفوظ في متحف بغداد، كما نجد تأثير بلاد النهرين واضحا كذلك في مجالين آخرين:

1- أحدهما هو مجال الأدب الملحمي الذي ظهر عند السومريين والبابليين في عدد من الملاحم الشعرية أبرزها ملحمة "جلجامش" وملحمة "إينوما إيليش" ويظهر ذلك التأثير في ملحمة الأوديسا المنسوبة للشاعر اليوناني هوميروس[147].

2- والمجال الثاني هو مجال الأساطير التي كان الإنسان في العصور القديمة يحاول عن طريقها تفسير

الظواهر الطبيعية، وقد ظهر التأثير جليا في بعض الأساطير الإغريقية التي تكاد تتطابق فكرة وتفصيلا مع الأساطير التي سبقتها في بلاد النهرين مثل: قصة الطوفان وقصة خلق الإنسان.

أما عن التأثير المصري فيظهر فيما أخذه اليونانيون عن المصريين في مجال الطب والتشريح, وهي مبادئ لم يقتصر مجالها على الخبرة الناتجة عن الممارسة فحسب وإنما دونها المصريون في شكل قواعد علمية.

كما يظهر ذلك بوضوح في عدد من البرديات التي ترجع إلى العصر المصري القديم مثل بردية "هيرست " "Hearst" المحفوظة في جامعة كاليفورنيا, وبردية "ادوين سميث" "Edwin Smith" الموجودة في نيويورك. كما يظهر التأثير كذلك في فن النحت والعمارة وذلك في التماثيل والعمارة اليونانية كمقارنة بقايا معبد سقارة والكرنك بمعبد "أبوللون" في أوملبية[148]...

لكن في المقابل فإن اتصال الحضارة اليونانية بحضارات الشرق الأدنى القديم لم يتوقف عند هذه المرحلة, فقد طور المجتمع اليوناني نفسه وأضاف الكثير لما تأثر به, وصاغ كل ذلك صياغة جديدة وخاصة خلال القرنين الخامس والرابع ق.م لتكتمل الدورة الحضارية بعد فتح الإسكندر المقدوني للشرق القديم.

أما عن تأثير اليونان في الحضارات الغربية فيظهر ذلك جليا عند الرومان الذين تأثروا بالنظم والأفكار التي انتقلت إليهم من شواطئ البحر الأبيض المتوسط, وفي هذا المجال نجد المدن اليونانية التي أسسها اليونان في إيطاليا وخاصة على ساحلها الغربي تصبح مصدر سيل من الأفكار والنظم التي انتقلت مع السلع التجارية اليونانية إلى مدينة روما "Rome" وهي لا تزال في طور نشأتها. وبعد أن توسعت روما وأصبحت القوة المسيطرة في حوض المتوسط نجدها تتتلمذ على بلاد اليونان في أكثر من مجال من مجالات الأدب والفكر والثقافة بوجه عام بحيث أصبحت الثقافة اليونانية لازمة من لوازم أي مثقف روماني، وإلا فإن تكوينه الفكري لا يعتد به ويعتبر مازال ناقصا حتى يتتلمذ على يد اليونانيين في مهجرهم الروماني، أو يسعى إليهم في بلاد اليونان في أثينا أو غيرها من مراكز الثقافة اليونانية.

المحور الثامن: الحضارة الرومانية

تمهيد:

يحتل التاريخ الروماني مكانة خاصة في تاريخ العالم، ولا أدل على ذلك من تلك الآثار الشامخة التي خلفها الرومان في كل مكان، حيث انتصروا وامتد نفوذهم من بريطانيا غربا حتى الفرات شرقا، ومن شواطئ بحر البلطيق شمالا حتى الصحراء الكبرى جنوبا.

ولقد عاش الرومان منذ نشأتهم في مدينة روما التي تقع على ضفة نهر "التيبر" في وسط إيطاليا، ثم توسعت فيما بعد ممتلكات الرومان بفعل قوتهم العسكرية الهائلة حتى تمكنت من السيطرة على معظم مناطق العالم القديم.

كما درس العلماء والمؤرخون الحضارة الرومانية دراسة وافية، وكتبوا عنها أكثر مما كتبوا عن الحضارة اليونانية، وذلك لأن فضلها واضح على المدنيات الأوربية، ولأن لغتها يتحدث بها أكثر من نصف سكان القارة الأوربية، ولقد تميزت بعمارتها الضخمة، ونصوصها وأنظمتها القانونية، بل أن هناك أسطورة تقول "أن روما هي دولة العالم وجالبة السلام العالمي"، وقد ساعد كل هذا على طمس الحقيقة وهي أنه حتى الوقت الذي أصبحت فيه روما قوة عالمية كان الرومان أنفسهم من البرابرة غير المتمدنين.

ومن الناحية الحضارية كانت إيطاليا متأخرة عن البلاد الإيجية خلال معظم أيام تاريخها، وليس ذلك إلا مجرد انعكاس للحقيقة المعروفة، وهي أنه لابد لأي نظام حضاري من وقت كاف حتى يصل إلى نقطة الأصل، بمعنى الأخذ بسيمات الحضارة الأصلية ومحاولة تطويرها وفق متطلبات المجتمع الروماني[149].

1- أصل التسمية وبداية التأسيس:

سمي الرومان بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتهم "روما"، وقد سميت هذه الأخيرة بـ "المدينة الأزلية" وذلك لأهميتها التاريخية وتاريخها الطويل، فقد ظلت هذه المدينة لمئات السنين مركز القوة في أوربا وشمالي إفريقيا وغربي آسيا.

وقد نشأت هذه المدينة –كما تقول الأسطورة الرومانية- عندما قام أخوان توأمان هما "رومولوس وريموس" بتأسيس مستوطنة سنة (753ق.م) على ضفاف نهر التيبر، ويعتقد معظم المؤرخين أن من سكنوا تلك البقعة كونوا شعبا عرف باسم "اللاتين"[150].

واستطاعت هذه المدينة الصغيرة أن تتلمس طريقها إلى العظمة اللاحقة، وأن تبني بصبر وأناة -ولكن في منتهى العزم والتصميم- كيانا سياسيا قويا تمكن ليس فقط من طرد الإتروسكيين، وإنما عمد إلى مطاردتهم والقضاء على دولهم ومدنهم الواحدة بعد الأخرى، ثم تمكنت زعيمة اللاتيوم من خلال صراع طويل مع الشعوب الإيطالية الأخرى، ومع المستعمرات الإغريقية القائمة في الجنوب أن تخضع هذه الشعوب المتناثرة لسيطرتها وتحقق للمرة الأولى في التاريخ وحدة شبه الجزيرة الإيطالية[151].

2- <u>مراحل الحكم الروماني</u>:

أ- مرحلة النظام الملكي.

ب- مرحلة النظام الجمهوري.

ت- مرحلة النظام الامبراطوري.

<u>مرحلة النظام الملكي (753-509 ق.م)</u>:

امتدت مرحلة النظام الملكي حوالي قرن ونصف، أي منذ تأسيس مدينة روما في سنة 753 ق.م إلى حوالي سنة 509 ق.م[152]، وهذه السنة هي التي عقدت فيها روما أولى معاهداتها في البحر الأبيض المتوسط وبداية التطلع إلى التوسع خارج حدودها.

ويعتقد أنه توالى في هذه الفترة على عرش روما ستة ملوك، وكان الملك هو مصدر القانون وهو الذي ينظم العلاقات بين الناس في الدولة، وقد كان المواطنون يلتقون في مجالس للتصويت على قرارات الملك ومجلس الشيوخ، ولكن لم يكن لهذه المجالس أي اختصاص تشريعي.

ولقد تمثل الحكم في تلك الفترة في ثلاثة عناصر أساسية وهي: الملك ومجلس الشيوخ والجمعيات

الشعبية أو مجلس الجماعات[153]، ومع وجود هذه المجالس إلا أن السلطة المطلقة كانت في يد الملك.

مرحلة النظام الجمهوري (509-27 ق.م):

وقد امتدت حوالي خمسة قرون، وقد مدت في هذه المرحلة روما سيطرتها على الكثير من مناطق العالم، وكان لجيشها القوي آنذاك الفضل في هذا التوسع ومد النفوذ، واكتسبت عن طريق الحروب الكثير من الخبرات والتجارب السياسية والإدارية وذلك من خلال احتكاكها بالشعوب التي كانت تسبقها في مضمار الحضارة. وقد اتسم النظام الجمهوري بالكثير من ملامح وصفات النظام الملكي السابق.

وعلى الرغم من أن دستور "الجمهورية الرومانية" يستند نظريا إلى التوازن بين ثلاث سلطات سياسية تراقب بعضها البعض ونعني بها:

- السلطة التنفيذية: وتتمثل بمناصب الحكام (Magistratus) "الظاهر الملكي"
- السلطة التشريعية: متمثلة بمختلف المجالس التشريعية (Comitia) "الظاهر الديمقراطي".
- سلطة المراقبة والاستشارة: وتتمثل بمجلس الشيوخ (Senatus) الذي كان يصور بوقار أعضائه "الظاهر الأرستقراطي.

غير أنه في هذه الفترة أصبح مجلس الشيوخ من أقوى الهيئات الحكومية سلطة في الجمهورية الرومانية، بحيث يوجه السياسة الخارجية ويصدر المراسيم، ويعالج الأمور المالية الحكومية[154].

وفي أواخر العهد الجمهوري في سنة (64 ق.م) فتح القائد الروماني "بومبي" شرقي تركيا وسوريا وفلسطين، وحينما عاد إلى روما رفض مجلس الشيوخ الاعتراف بانتصاراته، ونتيجة لذلك شكّل سنة (60 ق.م) حكومة ثلاثية، ومنذ ذلك الحين حتى قيام الإمبراطورية سنة (27 ق.م)، توالت على الحكم في روما حكومتان ثلاثيتان هما:

1- الحكومة الثلاثية الأولى المكونة من: بومبايوس (بومبي)، و"يوليوس قيصر"، وماركوس كراسوس.

2- الحكومة الثلاثية الثانية سنة 43 ق.م والمكونة من أنطونيوس(مارك أنطوني)، وأغسطس(أوكتافيوس)، ولبيدوس (ماركوس لبيدوس)، وبقيت حتى سنة13 ق.م.

مرحلة النظام الإمبراطوري(27 ق.م- 476 م):

يهدف النظام الإمبراطوري الجديد إلى تمركز السلطات بيد السلطة التنفيذية وعلى رأسها الإمبراطور الحاكم المطلق، وقائد الجيش الأعلى، ولم يبق لمجلس الشيوخ إلا ظاهر السلطة.

وتمتد مرحلة النظام الإمبراطوري منذ سقوط الحكم الجمهوري في روما سنة 27 ق.م بعد سنوات عديدة من الحروب الأهلية إلى سقوط روما سنة 476 م، وكان أول إمبراطور هو "أوكتافيوس" الذي اتخذ اسم "أغسطس" في كثير من الأحيان.

لقد كان أوكتافيوس يدرك الحاجة الماسة إلى إصلاح أمور الدولة، ولكنه رأى بثاقب نظره وجوب التمهيد لإصلاحاته بإعادة الطمأنينة إلى النفوس، وتنمية الشعور بالاستقرار بعد ويلات الحرب الأهلية[80].

وقد تميز العهد الإمبراطوري عموما بمجموعة من المميزات منها:

- إمساك الأباطرة بزمام السلطة والإبقاء على المؤسسات الحكومية القديمة للعصر الجمهوري دون أن يكون لها تأثير في نظام الحكم.
- كان الأباطرة يعيّنون القناصل ويعيّنون أعضاء جدد لمجلس الشيوخ، ولم يكن للمجالس الشعبية سوى سلطة ضئيلة.
- كان الأباطرة يقودون الجيش ويتحكمون في صياغة القانون ويعتمدون على مستشاريهم أكثر من اعتمادهم على أعضاء مجلس الشيوخ.
- أصبحت التجارة العامل الرئيسي في الحياة الاقتصادية وخاصة في العصر الإمبراطوري الأول بحيث تعددت الفرص العظيمة أمام هذا النشاط لسكان الإمبراطورية لتوحيد العالم المتمدن

آنذاك وتحوله عمليا إلى دولة عالمية واحدة، وسيادة السلم والأمن في الداخل والخارج.

- في الفترة الثانية من عهد الإمبراطورية بدأت الديانة المسيحية بالانتشار في الأرجاء الشرقية للإمبراطورية، إلا أن الديانة الرسمية للإمبراطورية كانت وثنية تعود في أصولها إلى الديانة الإغريقية.

3- **عوامل التوسع الروماني:**

تعتبر مرحلة العهد الجمهوري أكثر المراحل التي عرفت فيها روما توسعا كبيرا، وتعود أسباب ذلك التوسع إلى:

- سياسة مجلس الشيوخ التي تهدف إلى التوسع.
- تسابق القناصل إلى إحراز النصر والتغلب على الشعوب الأخرى، لتحقيق مآربهم الشخصية من جهة، ثم محاولة إرضاء الإمبراطور بتوسيع نفوذ الإمبراطورية الرومانية من جهة أخرى.
- البحث عن الموارد الاقتصادية وفك الخناق على روما التي أصبحت تعاني الكثير من المشاكل كالاكتظاظ بالسكان، والبطالة، والفقر... وغيرها.
- الحماس العسكري للشعب الروماني، وخاصة في المراحل الأولى للإمبراطورية الرومانية بحيث أن عامة الشعب كانوا يسارعون للانضمام إلى الجيش الذي كان يحقق الكثير من الانتصارات.
- وقد ساعد انتشار الأفكار الإغريقية (اليونانية) على تمتين وحدة أجزاء الإمبراطورية بعد مد نفوذها إلى مناطق عديدة في أوربا وخارجها، فالشعب الوحيد الذي كان له عليهم تأثير ذهني عظيم قبل القرن الثاني أو الثالث الميلادي هو أبناء قرابتهم الإغريق الذين يشبهونهم، لذلك كانت الإمبراطورية الرومانية في جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بحتة تقريبا[155].

- كما ساعد في وقت متأخر انتشار المسيحية على وحدة روما، رغم بعض الفوارق الدينية التي نشأت على الصعيد اللاهوتي، والتي أدت إلى قيام عدة بطريركيات متناحرة في كل من الإسكندرية وأنطاكيا والقسطنطينية.

4- <u>الجيش الروماني ودوره في التوسع</u>:

لقد كانت الحاجة في روما تدعو إلى وجود جيش دائم وقوي يستطيع الدفاع عن نظام الحكم وعن حدود الإمبراطورية المترامية الأطراف، ولذلك أولى حكام روما هذا الأمر عظيم عنايتهم ورعايتهم.

ولم يكن للجانب العسكري أثر ثانوي في تاريخ روما، بل شكّلت الحروب موقعاً مركزياً في تاريخها وتاريخ جميع دول العالم القديم، فموقع روما في وسط جغرافي مليء بالشعوب والقبائل القوية دفع بها إلى استخدام القوة للذود عن كيانها ووجودها، وعلى فترة امتدت لأجيال سفكت روما خلالها الكثير من الدماء وأبدت شجاعةً وتصميماً في مواجه خصومها في إيطاليا وخارجها.

كما ظهرت لديها بوادر التخطيط للمحافظة على مصالحها، ووجب عليها زيادة قوتها بقدر ما كانت توسع نفوذها، وهذا دفعها إلى تشكيل جيش مهمته تأمين الحماية للسلطة، ومواجهة الأخطار التي يمكن أن تواجهها نتيجة توسعها، وفي البداية أي في العهد الملكي فإن الجيش الروماني كان مكونا من المزارعين الذين كانوا يجندون في الصيف وهي الفترة التي لا يعملون فيها في مجال الزراعة فيستغلون في الدفاع عن روما، أما في ظل الجمهورية فإن الجيش كان يتكون فقط من المواطنين الذين يملكون الأراضي اعتقادا منهم بأن أصحاب الممتلكات الذين لهم نصيب أكبر في الجمهورية هم الذين سيدافعون عنها بشكل أفضل من الذين لا أرض لهم.

وعندما بدأت روما بشن الحروب، فيما وراء البحار احتاجت إلى عدد أكبر من الجنود، وكان على هؤلاء الجنود الخدمة في الجيش لفترات أطول، ولكن في سنة (107ق.م) ألغت الحكومة الرومانية شرط الملكية، وفتحت الجيش للمتطوعين، ولذلك أتاح الجيش لعدد كبير من الرومان مهنة طويلة الأمد[156].

وكمثال عن الحروب ودور الجيش الروماني نذكر (الحروب البونية الثلاث 264-146 ق.م) ضد قرطاجة، والتي عبرت عن طموحات الرومان في التوسع، وكذلك عبرت عن رفض الرومان بقبول منافس يؤثر على مصالحها، وإن الحروب الطويلة مع قرطاجة ، والتي انتهت بالقضاء على الدولة الفينيقية وتدمير قرطاجة سنة 146ق.م، وتأسيس مقاطعة إفريقيا الرومانية، أكسب روما خبرة عسكرية كبيرة أنتجت جيشاً لا يقهر، وحررت مخاوف وطاقات روما التوسعية.

5- <u>القانون الروماني</u>:

يقصد بالقانون الروماني ذلك القانون الذي نشأ وطبق في المجتمع الروماني منذ نشأة روما في القرن السابع قبل الميلاد حتى تقنينه في مجموعات الإمبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي. واعتبار صدور مجموعات جستنيان نهاية لتاريخ القانون الروماني لا يرجع إلى أنه لم يعد قانونا منذ ذلك التاريخ فهو ظل مطبقا في أوروبا حتى صدور التقنينات الحديثة خلال القرن التاسع عشر، بل يرجع إلى أن مجموعات جستنيان كانت خاتمة المطاف في تطور القانون الروماني، فبصدورها استقرت القواعد القانونية الرومانية واتخذت شكلها الذي نعرفها به الآن واتخذها العلماء اللاحقون أساسا لدراستهم القانونية ، دون تعديل في جوهرها.

وقد نشر الرومان أولى مدوناتهم القانونية المعروفة نحو سنة 450 ق.م. وسجلت هذه المدونة، التي أطلق عليها اسم "القوائم الإثني عشرة للقوانين"، الأعراف السائدة بشكل مكتوب. وظل القانون الروماني مرنًا واعتمد على تفسيرات لمحامين وقضاة مهرة[157].

وتطورت، بمرور السنين، مجموعة شاملة من القواعد التشريعية، طُبِّقت على مختلف الشعوب التي تعيش في ظل الحكم الروماني. وأطلق المحامون الرومان على هذه المجموعة من القواعد التشريعية اسم " قانون الأمم"، وقد ارتكز قانون الأمم هذا على الأفكار البديهية للعدالة، مع مراعاة التقاليد والأعراف المحلية.

المحور التاسع: الحضارة الفينيقية

تمهيد:

لقد أرسى الإنسان في منطقة الشرق الأدنى القديم أصول الحضارة الإنسانية المستقرة في جميع مظاهرها المادية والمعنوية منذ بداية استقراره وتوطنه فيها، وقد أجمع العلماء والمؤرخون على أهمية هذه المنطقة وأولويتها على جميع مناطق العالم القديم, ولأجل ذلك فقد وجهوا كل أبحاثهم وقدراتهم الفكرية والمادية لدراستها, وإبراز معالمها ومكنونها الحضاري وسجلها الحافل بالمعلومات في شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

وتعتبر منطقة سوريا والساحل الفينيقي وفلسطين(أو ما يعرف في العهود الإسلامية ببلاد الشام) محور التقاء لكافة الحضارات القديمة سواء العراقية أو الحيثية القديمة أو المصرية أو الحضارتين الغربيتين اليونانية والرومانية, وهو ما جعل هذه المنطقة تتأثر بكافة هذه العناصر الحضارية.

1- أهمية المنطقة:

إن تركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات في هذا القطاع الضيق من الأرض كان يعني أنه حكم على هذه المنطقة أن تكون مسرحا لمجموعة من الهجرات والغزوات المتعاقبة دون أي فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية ذات طابع مركزي كما هو عليه الحال في حضارات أخرى مجاورة. وقد كانت هذه المنطقة أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبيرة التي كانت تقع بينها, وقد كانت الشعوب المهاجرة تتوافد عليها مرة بعد أخرى لأنها كانت منطقة جذابة في حد ذاتها لما تتميز به أراضيها من خصوبة عالية, يمكن دخولها من كل جانب والانتقال منها في كل اتجاه, وقد كانت هذه المنطقة مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط, فضلا عن الصحراء التي جاء منها البدو الساميون.

2- **أصل الفينيقيين وتاريخهم:**

الفينيقيون هم شعب سام يعود موطنهم الأصلي لمنطقة شبه الجزيرة العربية التي انتقلوا منها في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد إلى الساحل السوري, ولغتهم سامية كنعانية, وقد احتفظوا بتسميتهم الأصلية كنعانيين, وهذه الكلمة مشتقة من كلمة "كناجي" "knaggi" التي تعني الصباغة الأرجوانية, أو من الفعل "كنع" "kana" الذي يعني في اللغة السامية "انخفض" ويقصد بالأرض المنخفضة هنا انخفاض الساحل الفينيقي بالنسبة لجبال لبنان التي هي امتداد طبيعي لجبال طوروس في آسيا الصغرى وبالتالي فهي تسمية جغرافية[158].

وفي بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد أطلق الإغريق على الكنعانيين الساكنين في غربي سوريا والذين هاجروا معهم اسم "فينيقيين" المشتق من كلمة "phoinix" أي اللون الأحمر الأرجواني.

وقد حدد تاريخ الفينيقيين شكل حضارتهم, فالعبور المستمر والتوافد الكثير لتلك الشعوب وتفاعلها بعضها مع بعض أدى إلى صورة مختلطة من الحضارة, تتكون من عناصر متباينة وقد غلب عليها الأثر السامي بفضل ما أسهمت به الشعوب السامية في سوريا وفلسطين من ناحية, وما أسهم به البابليون والأشوريون من ناحية أخرى, فقد جلب هؤلاء أهم عناصر حضارتهم إلى كنعان خلال زحفهم المتصل نحو البحر المتوسط.

ويرتبط اسم الفينيقيين ودورهم الحضاري بمنجزات كثيرة حملها الملاحون والتجار الفينيقيون الذين جابوا البحر المتوسط قبل أكثر من ثلاثة الآف سنة وفي مقدمتها الصناعة النسيجية ذات الصبغة الأرجوانية وصناعة السفن, وتطوير الملاحة والتجارة البحرية, كما اهتموا بصناعة الفخار, بالإضافة إلى إبداعهم في مجال الكتابة الأبجدية وهي كتابة محلية فينيقية يعود ظهورها إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد, وقد نوه العالم الفرنسي "ديسو" "dussaud" في كتاباته بمجهودات الفينيقيين في هذا الميدان وسبقهم لكل شعوب العالم في اختراع أول أبجدية من نوعها تناقلتها فيما بعد معظم شعوب العالم[159].

وتاريخ الفينيقيين هو تاريخ المدن الفينيقية التي كونت منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد دويلات مدن

أهمها:أرواد-أوغاريت-طرابلس-صيدا-صور-جبيل-بيروت-وقرطاجة في تونس وقد ورد ذكر هذه المدن وغيرها في سجلات الفراعنة(تحوتمس الثالث مثلا) وفي أسفار الكتاب المقدس(العهد القديم) مثل سفري "يشوع والقضاة", وكذلك في السجلات الأشورية[54]. ومهما يكن أمر هذه المدن فإن شهرتها كانت تعتمد في أساسها على نشاطها الاقتصادي الذي هيأ لها مكانة تجارية مرموقة بين أقطار العالم القديم, وهذه المدن كانت تمتد على شريط ساحلي ضيق يمتد على أكثر من300كلم, ولا تصله بالداخل إلا مسالك متقطعة وهو ما لم يساعد على قيام دولة مركزية قوية, ولذلك كانت عرضة لضغوط الدول الكبرى في المنطقة مثل الدولة المصرية, والعراقية والحيثية.

وقد عاش الفينيقيون في عدد من المدن، لم تعرف التوحد، بل كان لكل مدينة حكمها الذاتي وملكها، وبدء من حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ظهرت مجالس الحكماء لتحكم إلى جانب الملك، وكان بعض هذه المجالس أكثر نفوذا من الملوك، وفي وقت لاحق أصبحت معظم هذه المدن تحكمها حكومة مدنية تسمى "الشوفيت".

3- <u>التجارة عند الفينيقيين وتوسعهم نحو البحر المتوسط</u>:

بعد التخلص من الهيمنة الأجنبية في حدود القرن ال12 ق.م وبداية عهد الاستقلال عند الفينيقيين تحت زعامة مدينة صور، اهتم الفينيقيون بالتجارة البحرية، وشمل نشاطهم البحري التجاري كامل حوض البحر الأبيض المتوسط، وتعتبر التجارة عصب الحياة الاقتصادية عند الفينيقيين, وهذه الأهمية ناتجة عن تأثرهم بمجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والطبيعية والبشرية والتي كانت تحيط بمنطقة الساحل الفينيقي, وقد ساعد الفينيقيين على احتراف التجارة عدة أسباب نذكر منها:

1- مواقع مدنهم القائمة على رؤوس متوغلة داخل البحر وعلى جزر متقطعة بالقرب من الساحل, وهذا ما وفر لهم وجود موانئ طبيعية وأحواض تصلح لبناء السفن.

2- توفر الأخشاب التي اشتهرت بها غابات جبال لبنان على مر التاريخ ساعدهم على احتراف صناعة

الأخشاب وبناء السفن بصفة خاصة.

3- تحكم الساحل الفينيقي في الطريق الدولي الذي يصعد من وادي النيل عبر سيناء, ويربط مناطق ازدهار الحضارات القديمة في شمال سوريا وآسيا الصغرى وبلاد النهرين.

وقد كان الفينيقيون يعملون كوسطاء تجاريين في إيصال بضائع دول شرقي المتوسط إلى الشعوب التي كانت في حاجة إليها في جزر البحر المتوسط وشواطئه الغربية، وسرعان ما قلدوا هذه الصناعات فأصبحت لهم بذلك شهرة صناعية خاصة في الثياب ذات اللون الأرجواني التي انفردوا بصناعتها، وصناعة الحلي والزجاج الشفاف, ومعظم هذه الصناعات المحلية ازدهرت في فينيقيا ازدهارا كبيرا في فترة الاستقلال الممتدة من أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد نتج عن الازدهار الصناعي أن نشطت التجارة البحرية الفينيقية في البحر المتوسط واحتكر الفينيقيون طرقها، ثم وجهوا عنايتهم لدراسة أصول الملاحة البحرية معتمدين في ذلك على براعتهم في معرفة الطرق البحرية التي كانوا يكتمون سرها، أو يزورون حقائقها في بعض الأحيان حتى لا ينافسهم في ذلك تجار الشعوب البحرية الأخرى، ونظرا لاعتماد الصناعة الفينيقية على مواد خام لم يكن بعضها متوفرا في فينيقيا، فإنهم غادروا منطقتهم وأسسوا الكثير من المحطات والمستوطنات التجارية على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط، فمنذ 1200ق.م ظهرت المستوطنات في بحر إيجا ومالطا وصقلية وسردينيا وشمال إفريقيا وإسبانيا، وكانت قرطاجة أهم هذه المستوطنات وقد أسستها صور مع نهاية القرن التاسع قبل الميلاد[160].

وكان نظام تواجدهم خارج بلادهم شبيها بنظام وجودهم داخلها، يتشكل من مدن مستقلة تربط فيما بينها وحدة المصالح واللغة والدين، وتتبع رمزيا إلى المدينة الأم وهي تارة "صور" وتارة "صيدا" وفي مرحلة متأخرة "قرطاجة".

وقد كانت الأساليب التجارية القديمة للفينيقيين مع الشعوب الأخرى حسب ما رواه "هيرودوت" تتم كما يلي: حيث ينزل التجار الفينيقيون من سفنهم ما حملوه من بضائع ويضعونها على رمال الشاطئ مباشرة، في حين يراقب سكان الساحل ذلك من بعيد، ثم يعود التجار إلى سفنهم مبتعدين بها قليلا في البحر.

وحين يطمئن السكان لذلك يقتربون من البضاعة ويتأملونها ثم يضعون إلى جانبها قيمة لها ربما تكون مقدارا من الذهب أو مادة أخرى وينسحبون بعيدا، يعود بعدها الفينيقيون لينظروا ما وضع زبائنهم من قيمة فإن اقتنعوا بها كانوا يأخذونها وينصرفون، وإن لم تعجبهم تركوا كل شيء في مكانه وابتعدوا في البحر مرة أخرى، فيعود عندها الزبائن لزيادة شيء على القيمة وينسحبون مجددا، وربما يتكرر ذلك عدة مرات حتى يقتنع الطرفان، وهذه التجارة الصامتة كانت تستغرق في الغالب عدة أيام، وهي تتميز بالمجازفة التي يقوم بها الفينيقيون عندما يتركون بضائعهم ويبتعدون لكنهم فيما بعد اكتسبوا ثقة الكثير من الشعوب لمعاملاتهم السلمية[161].

4- <u>الأبجدية الفينيقية</u>:

إن للفينيقيين مآثر كثيرة على التقدم الإنساني، ولا شك أن نشرهم للحروف الهجائية في أرجاء العالم هو من أهم ما قاموا به، وقد سبقت الأبجدية الفينيقية كتابات أخرى نذكر منها على سبيل المثال الكتابة التصويرية التي ظهرت في مصر، والكتابة السومرية في جنوب العراق، وهما كتابتين متعاصرتين أو متقاربتين في زمن الظهور، وقد اعتمدتا في البداية على تصوير الأفكار والأشياء ثم تطورت كل منهما بطريقتها الخاصة.

وقد حدث في عام 1905 أن "فلندرز بتري" الأثري البريطاني الشهير كان يعمل في منطقة "سرابيط الخادم" في سيناء عندما عثر على كتابات غريبة على جوانب بعض مناجم الفيروز القديمة وعلى بعض النصب المقامة في المعبد ،كانت هذه الكتابات مكتوبة بحروف يشبه بعضها الكتابة المصرية القديمة،

وبعضها الآخر لا يشبهها ،وحدثت محاولات كثيرة لفك رموزها، ولكن منذ البداية أطلق عليها علماء الدراسات اللغوية اسم الكتابة السينائية وأدركوا الصلة بينها وبين بعض ما كان معروفا من الكتابات الفينيقية القديمة وكانت آخر محاولة للوصول إلى ترجمتها وفك رموزها هي المحاولة الناجحة التي قام بها العالم الأمريكي "أولبريت" عام1948م[162].

وعلى ضوء الأبحاث اللغوية المتعلقة بأصول الكتابة الأبجدية الفينيقية أمكن التوصل إلى أن الكتابة السينائية هي الأساس الذي استندت إليه الأبجدية الفينيقية وهو ما ذهب إليه العالم اللغوي "جاردنر"[163].

أما العالم الفرنسي "مونتي" فقد اكتشف الكتابة التي وجدت على غطاء تابوت الملك "أحيرام" و المتكونة من سطرين سنة1923 والتي قام العالم "ديسو" بدراستها وأثبت بعد المقارنة والدراسة أن هذه الكتابة المتكونة من 22حرفا ساكنا تختلف عن كل الكتابات التي سبقتها كالهيروغليفية والمسمارية ، وهي كتابة محلية فينيقية يعود ظهورها إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وقد أشاد "ديسو" في كتاباته بمجهودات الفينيقيين في هذا المجال وتفوقهم وسبقهم لكل شعوب العالم في اختراع هذه الأبجدية[164].

المحور العاشر: الحضارة القرطاجية

1- تأسيس قرطاجة وظهورها في المغرب القديم:

بالرغم من وجود احتمالات عديدة حول التاريخ الحقيقي لبناء قرطاجة، إلا أن التاريخ الذي تحدده المصادر الكتابية وهو 814 ق.م يبدو أقرب التواريخ إلى الصحة، وقد حدد هذا التاريخ على اعتبار أن تأسيسها قد سبق بداية الألعاب الأولمبية الأولى(776 ق.م) بحوالي 38 سنة، وتأخر عن ظهور مدينة أوتيكا(1101 ق.م) بمقدار 287 سنة، وقد كانت قرطاجة من بداية نشأتها واحدة من المدن الفينيقية العديدة التي أنشئت على الساحل الشمالي لإفريقيا، ويبدو أن عليسة ومن معها من المستوطنين الفينيقيين الذين أسسوها قد سموها (قرط حدشت) أي المدينة الجديدة تمييزا لها عن "أوتيكا" أو المدينة العتيقة[165].

2- أسطورة بناء المدينة:

إن المصادر التي تتحدث عن أصول قرطاجة، والمتمثلة في نصوص المؤرخ اليهودي "يوسيفوس" التي ألفها بالاستناد إلى الكاتب اليوناني "ميناندروس الأفيسوسي Ménandré d'ephese" " والذي اعتمد بدوره على وثائق وحوليات ملوك مدينة صور، وما وصلنا كذلك عن طريق "تيمايوس 340-250 ق.م" كل ذلك يمثل بالتأكيد أهمية تاريخية، ولكنها محاطة بالغموض والأساطير، وبعض التناقضات مما يؤدي إلى صعوبة تحديد الظروف والأسباب الحقيقية التي أدت إلى تأسيس هذه المدينة.

وتذكر الأسطورة بأنه بعد وفاة الملك (ماتان- Matan) ملك صور عاد الحكم لابنيه عليسة (Alissa) وبغماليون(Pygmalion)، وكانت عليسة في غاية الجمال فتزوج بها "عاشر باص" كبير كهنة معبد الإله (ملقرط) وكان ذو ثروة كبيرة، وقد خشي عاشر باص على ثروته من اللصوص ومن جشع بغماليون كذلك فدفنها تحت جدران المعبد، وعندما بلغ نبأ الكنز المدفون الملك الذي كان هو الآخر يحب المال كثيرا قرر الاستيلاء عليه ولم يتوان في قتل خاله وزوج أخته في نفس الوقت، وشعرت عليسة بأنها مجبرة على الفرار،

وعرفت كيف تحتال على شقيقها وتظاهرت أمامه بعدم الاكتراث بالحادثة التي كانت تحز في نفسها[166].

وأبحرت بأموال زوجها صحبة مؤيديها إلى قبرص ومنها إلى إفريقيا، بعد أن انضم إليها في قبرص كاهن (يونو-juno) الذي ضمن لنفسه ولأسرته من بعده الإشراف الديني في المدينة الجديدة، كما أخذت معها من قبرص ثمانين فتاة من فتيات المعبد ليكن أزواجا للشباب الذين كانوا معها[167]. وقد نزلت بعد ذلك بالقرب من مدينة أوتيكا ورحب بها سكان المنطقة، واشترت منهم قطعة أرض بمقدار جلد ثور، قطعت الجلد إلى أشرطة صغيرة أحاطت بمساحة تكفي لبناء مدينتها الجديدة (قرط حدشت).

3- أهمية قرطاجة الاستراتيجية:

يتضح مما كتبه المؤرخون القدماء، وما أسفرت عنه النتائج الأثرية التي توالت في مواقع قرطاجة، بأنها قد امتازت بموقعها الاستراتيجي الهام حيث أنها بنيت على موقع يوصف بأنه شبه جزيرة محاطة بالبحر من جهة، وبحيرة تونس وأريانة من الجهتين الأخريين، أما من الخلف فإنها محمية بمرتفع (بيرصة- Byrsa) الذي بني في قمته معبد الإله أشمون، ولا تتصل قرطاجة باليابسة إلا عن طريق مسافة ضيقة يبلغ طولها حوالي أربعة كيلومترات ونصف، وعلى مسافة غير بعيدة من قرطاجة عبر الشاطئ كانت تقع أوتيكا.

ويتضح مما سبق بأن موقع قرطاجة الاستراتيجي في خليج شمال تونس كان قد أهّلها لأن تلعب دورا هاما في الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما جعلها تعمل على إبراز مجتمع بوني يمتزج فيه المغاربة بالقادمين الجدد من الفينيقيين.

ومن خلال هذه الأهمية فإن الرأي المعتمد على أسطورة "يوسيفوس" والسائد لدى المؤرخين والقائل بأن قرطاجة قد تأسست نتيجة للصراع القائم بين حزبي "بغماليون" و"عليسة" في مدينة صور، أو بصورة أخرى نتيجة للصراع بين القصر والمعبد، ثم فرار الحزب المهزوم إلى شمال إفريقيا وتأسيسه عفويا لمدينة حديثة عرفت فيما بعد بقرطاجة، لا يزال يحتاج إلى كثير من الدراسة والبحث والاهتمام، لأن الأمر على ما يبدو لم يكن اعتباطيا وعفويا بل كان وفق مخطط مدروس، ويظهر ذلك من خلال ما بيّناه سابقا من

حيث:

- أهمية الموقع الاستراتيجي الذي احتلته قرطاجة والذي ستتضح أهميته من خلال تاريخ المدينة السياسي والاقتصادي والعسكري فيما بعد.
- تعلق قرطاجة بصور واعترافها لها بنوع من التبعية والمتمثل في توجيه وفد كل سنة إلى صور لحضور حفلات القربان في معبد صور الأساسي، وكان الوفد القرطاجي يحمل معه هدية تمثل عشر (10/1) مداخيل الدولة حسب ما ورد في أخبار القدامى.
- حضور الأميرة عليسة شقيقة الملك وزوجة الكاهن الأكبر يبيّن لنا ربما الطابع الرسمي لهذا الإنجاز، ويوضح لنا المكانة التي تحتلها قرطاجة ضمن المستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وعلى مستوى سكان بلاد المغرب القديم وعلاقتهم بالوافدين الجدد فإن ما يمكن أن يقال هو وجود قيادة عليا تتمثل في شخص (ايرباص-Hiarbas) الذي كان يفوّض له القيام بالحرب وعقد السلم، وتسيير شؤون القبيلة أو الإقليم، وهو ما جعل عليسة ومن جاء بعدها يضبطون قضية الضرائب التي تدفع سنويا للمغاربة مقابل إعطائهم الأمان، وهو ما يشير إلى علاقات المصالح المشتركة التي ميزت اللقاءات الأولى الفينيقية المغربية[168].

4- <u>تشكل الإمبراطورية القرطاجية وتزعمها لمستوطنات غربي المتوسط</u>:

لقد كانت بداية قرطاجة متواضعة، وظلت تدفع الضرائب للمغاربة لمدة تزيد على ثلاثة قرون (814-480 ق.م)، ولكنها منذ تأسيسها عام 814 ق.م أخذت تنمو وتكبر، ويتسع عمرانها ويرتفع عدد سكانها، ويعلو شأنها حتى أصبحت فيما بعد مركز الحضارة وملتقى التجارة العالمية، وعاصمة الشمال الإفريقي من خليج السرت في ليبيا شرقا إلى أعمدة هرقل غربا.

وابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت قوة بحرية تعمل على السيطرة على الحوض الغربي

للبحر الأبيض المتوسط، ومسؤولة على إمبراطورية مترامية الأطراف تضم كلا من جنوب اسبانيا وسواحل إفريقيا الشمالية، وجزر الباليار وسردينيا، وكذلك جنوب غربي صقلية. الأمر الذي جعلها تتحكم في مضائق الحوض الغربي للبحر المتوسط، مما جعل المؤرخين يسمون هذه الأخيرة بالبحيرة القرطاجية.

وقد ترتب عن ذلك أن احتكرت قرطاجة تجارة الحوض الغربي للمتوسط وألزمت روما وحلفاءها بعدم التجارة على شواطئه الجنوبية قبل أخذ إذن القرطاجيين.

أما عن طبيعة العلاقات التي تربط قرطاجة بباقي المستوطنات الفينيقية فيبدو أنها كانت مكلفة بالسهر على أمنها وممتلكاتها مقابل الاعتراف بسلطة قرطاجة في بعض المجالات السياسية والاقتصادية، أي نظام المدينة الدولة، ذات السيادة في المسائل الداخلية، أما السياسة الخارجية وعقد الاتفاقيات والمعاهدات فتعود لمدينة قرطاجة التي تولّت التعامل مع الإغريق والإتروسكيين والرومان[169].

الهوامش:

[1] محمد فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ط2، الدار السعودية للنشر والتوزيع-جدة1985، ص9.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 1414هـ، ج4، ص196.

[3] الفيروز بادي، القاموس المحيط، ج2، دار الفكر، بيروت 1412هـ، 1983م ، ص16.

[4] للمزيد حول تطور مصطلح Civilization"" وترجمته انظر: نصر محمد عارف، الحضارة- الثقافة- المدنية، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان-1994.، ص38 وما بعدها.

[5] أسامة الألفي، عوامل قيام الحضارات وانهيارها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة 2006، ص15.

[6] المرجع نفسه، ص15.

[7] عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ضبط وشح وتقديم، محمد الاسكندراني، لبنان، دار الكتاب العربي- بيروت 2004، 169.

[8] المرجع نفسه، ص169.

[9] المرجع نفسه، ص140.

[10] مالك بن نبي، مشكلات الحضارة –شروط النهضة-، تر، عمر كامل مسقاوي عبد الصبور شاهين، دار الكتاب اللبناني بيروت-2012، ص ص139-140.

[11] حسين مؤنس، الحضارة – دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها- عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت-1978، ص13.

[12] ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج1، 194.

[13] محمد فتحي عثمان، المرجع السابق، ص16.

[14] أوزفالد شبنجلر، تدهور الحضارة الغربية، الجزء الأول، ترجمة أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، لبنان، ص ص87 – 95.

[15] مالك بن نبي، المرجع السابق، ص87.

[16] أسامة الألفي، المرجع السابق، ص31.

[17] Bury J.B. The Ancient Greek Historian, New York, 1958, p12.

[18] Radice.B, Who's who in the Ancient World, London, 1971, p66.

[19] أحمد امين سليم، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم، تاريخ العراق –ايران –آسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية،1998، القاهرة،ص55.

[20] عامر سليمان، القانون في العراق القديم-دراسة تاريخية قانونية مقارنة-، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد-1987، ص20.

[21] Hartmut Schmokel, Sumer et la Civilisation Sumérienne, traduit de l'Allemand par L. Jospin, Payot, Paris-1964. P45.

[22] Kramer .S.N. ,New Lights on the Early History of the ancient east in American Journal of Archeology. Vol.52.(1948).p156.

[23] عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج1، مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية-1990، ص449.

[24] سبتينو موسكاتي, الحضارات السامية القديمة, ترجمة: السيد يعقوب بكر, الهيئة المصرية العامة للكتاب-1997, ص43.

[25] محمد بيومي مهران، حضارات الشرق الأدنى القديم- الحياة السياسية والاقتصادية والتشريعية-، ج1 دار المعرفة الجامعية-1999، ص57.

[26] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص478.

[27] موسكاتي، المرجع السابق، ص44.

[28] Jacques Pirenne. Civilisations Antiques. Edition, Albin Michel. Paris-1951;P85.

[29] أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص235.

[30] رضا جواد الهاشمي, نظام العائلة في العهد البابلي القديم , منشورات مكتبة الأندلس بغداد-1971، ص ص20-19.

[31] عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص516.

[32] أكرم الزيباري، "دراسة تحليلية لنصوص مسمارية من العهد البابلي القديم"، مجلة سومر،ج1 ، المجلد 27، بغداد-1971، ص100.

[33] فيليب حتي, خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى,مج1، ط1، الدار المتحدة للنشر، بيروت-1975, ص59.

[34] موسكاتي, المرجع السابق, ص45.

[35] أحمد أمين سليم، المرجع السابق ، ص256.

[36] بريستد جيمس هنري, انتصار الحضارة – تاريخ الشرق القديم- ترجمة, أحمد فخري, مكتبة الأنجلو المصرية-1969 ، ص199.

[37] موسكاتي, المرجع السابق, ص46.

[38] المرجع نفسه, ص47.

[39] سوسة أحمد, حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور, دار الحرية للطباعة بغداد- 1979، ص ص157-156.

[40] المرجع نفسه، ص161.

[41] المرجع نفسه، ص161.

[42] وحول إعجاب هيرودوت بمدينة بابل في عهد نبوخذ نصر ووصفه لها انظر:

هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة، عبد الإله الملاح، مراجعة، د. أحمد السقاف و د. حمد بن صراي، ط2، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي-2007، ص114، ومما ورد فيه:"...وفوق ما تتصف به من ترامي الرقعة، تفوق في بهائها كل مدينة أخرى في العالم. ".

[43] برهان الدين دلو، حضارة مصر والعراق، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، الثقافي والسياسي، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1989، ص377.

[44] الترمانيني عبد السلام، الوسيط في تاريخ القانون والنظم القانونية، ط2، جامعة الكويت 1978-1979، ص34.

[45] المرجع نفسه، ص36.

[46] عامر سليمان، القانون في العراق القديم-دراسة تأريخية قانونية مقارنة- ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد-1987، ص131.

[47] الترمانيني، المرجع السابق، ص37.

[48] وفي هذا السياق إشارة في القرآن الكريم إلى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام في الآيات:68،69،70 من سورة الأنبياء في قوله تعالى: " قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ(69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70)".

[49] سامي سعيد الأحمد، الإدارة ونظام الحكم، كتاب حضارة العراق، ج2، دار الحرية للطباعة، بغداد-1985، ص11.

[50] المرجع نفسه، ص11.

[51] عامر سليمان، المرجع السابق، ص132.

[52] سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص12.

[53] عامر سليمان، المرجع السابق، ص132.

[54]Jean Bottéro, Mésopotamie, L'écriture, La raison et les dieux, Édition Gallimard, 1987, p386.

[55] بهيجة خليل إسماعيل، مظاهر التوحد في المعتقدات الدينية، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين منشورات المجمع العلمي، بغداد-2001، ص134.

[56] للمزيد انظر: Th. Jacobsen, JNES, 2, (1953), pp 159-172.

[57]Jean Bottéro, op. cit, p 405.

[58] عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر، بغداد-1981، ص429.

[59] مارغرون جون كلود، السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية، ترجمة، سالم سليمان العيسى ط3، دار علاء الدين، دمشق-2009، ص113.

[60] عامر سليمان, جوانب من حضارة العراق القديم, كتاب العراق في التاريخ, دار الحرية للطباعة بغداد-1983، ص194.

[61] Dominique Charpin, Hammu-rabi de Babylone, Presses Universitaires de France, Paris-2003 , p259.

[62] أمل ميخائيل بشور، تاريخ الإمبراطوريات السامية في بابل وأشور، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان-2008، ص106.

[63] هو إحدى شخصيات التاريخ الأشوري الرئيسية، حكم في الفترة ما بين (1115-1077 ق.م)، وهو ابن وخليفة أشور-ريش- إيشي، قام بالكثير من الأعمال في الجوانب العسكرية التوسعية وخاصة في الأناضول، كما قام بالكثير من الأعمال الأخرى في الجوانب السياسية والاقتصادية.

للمزيد حول هذه الشخصية انظر: هاري ساكز، قوة أشور، تر، عامر سليمان، منشورات المجمع العلمي، بغداد- 1999، ص ص90-98.

[64] أمل بشور، المرجع السابق، ص195.

[65] مصطفى محمود سليمان، تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة-2006، ص53.

[66] المرجع نفسه، ص69.

[67] وليد محمود الجادر، "حرفة صناعة المعادن في العراق أصالة وتأصيل"، المؤرخ العربي ، العدد40، السنة14، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد-1989، ص265.

[68] Dominique Charpin op.cit, p258

[69] عامر سليمان، جوانب من حضارة العراق، مرجع سابق، ص199.

[70] وليد الجادر، المرجع السابق، ص265.

[71] عامر سليمان، جوانب من حضارة العراق، مرجع سابق، ص265.

[72] تقي عبد سالم و صلاح نعمان عيسى، "التجارة الخارجية في العهد البابلي"، المؤرخ العربي، العدد35 ، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد-1988، ص241.

[73] W.F.Leemans, Foreign trade in old Babylonian period, Leiden-1960, p120.

[74] حسن النجفي، التجارة والقانون بدءا في سومر، مركز البحوث والمعلومات، بغداد-1982، ص33.

[75] Laetitia Graslin-Thomé, Les échanges à longue distance en Mésopotamie, une approche économique, Orient & Méditerranée,№5, De Boccard, Paris-2009, p352.

[76] Ibid. p354.

[77] Ibid. p342.

[78] أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص300.

[79] W.B. Fisher, «Physical Geography». In The Cambridge History of Iran, Vol. I, The Land of Iran, Cambridge, 1968, p. 5.

[80] جمال البدري، الحضارة الفارسية القديمة، كتاب موسوعة الحضارات القديمة، ط1، دار النفائس، بيروت، 2011، ص303.

[81] أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص313.

[82] نعيم فرح، تاريخ حضارات العالم القديم، سياسيا، اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا، دمشق، 1975، ص226.

[83] المرجع نفسه، ص231.

[84] جمال البدري، المرجع السابق، ص311.

[85] ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ج1، تر، نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص239.

[86] المرجع نفسه، ص304.

[87] نعيم فرح، المرجع السابق، ص233.

[88] ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ج2، مج1، تر، محمد بدران، دار الجيل للنشر والطبع والتوزيع، بيروت، ص412.

[89] المرجع نفسه، ص413.

[90] عبد الله الحلو، سوريا القديمة، الكتاب الأول، التاريخ العام من أقدم الأزمنة المعروفة حتى أوائل العصر البيزنطي، ألف باء الأديب، دمشق، 2004، ص57.

[91] جباغ قابلو، محمود فرعون، تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2006، ص125.

[92] أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مصر والعراق، سوريا، اليمن، إيران، مختارات من الوثائق التاريخية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1999، ص54.

[93] جباغ قابلو، محمود فرعون، المرجع السابق، ص126.

[94] أحمد فخري، المرجع السابق، ص53.

[95] المرجع نفسه، ص64.

[96] أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص453.

[97] أحمد فخري، المرجع السابق، ص ص87-88.

[98] O.R. Gurney, «Anatolia C. 1750 - 1600 B. C», In C.A.H., vol II, Part I, Cambridge, 1973, p. 235.

[99] محمد سهيل قطوش، الحضارة الحثية ، كتاب موسوعة الحضارات القديمة، ط1، دار النفائس، بيروت، 2011، ص137.

[100] أحمد فخري، المرجع السابق، ص88.

[101] محمد سهيل قطوش، المرجع السابق، ص 139.

[102] المرجع نفسه، ص1390.

[103] W.F. Albirght, and T.O. Lambdin, <<The Indo - Hittite Family», in C.A.H, vol II, part I, p. 138.

[104] محمد سهيل قطوش، المرجع السابق، ص 140.

[105] نعيم فرح، المرجع السابق، ص221.

[106] المرجع نفسه، ص220.

[107] برهان الدين دلو، المرجع السابق، ص59.

[108] المرجع نفسه، ص60.

[109] المرجع نفسه، ص60.

[110] أحمد فخري، مصر الفرعونية- موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام332 قبل الميلاد، مكتبة الأنجلو المصرية-2008.، ص73.

[111] المرجع نفسه، ص74.

[112] نعيم فرح، المرجع السابق، ص41.

[113] جباغ قابلو، محمود فرعون، المرجع السابق، ص303.

[114] برهان الدين دلو، المرجع السابق، ص65.

[115] نعيم فرح ، المرجع السابق، ص ص48-49.

[116] عدنان مامو، كتاب موسوعة الحضارات القديمة، ط1، دار النفائس، بيروت، 2011، ص ص388-389.

[117] المرجع نفسه، ص389.

[118] نعيم فرح، المرجع السابق، ص55.

[119] برهان الدين دلو، المرجع السابق، ص77.

[120] المرجع نفسه، ص ص80-81.

[121] عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها في الاتجاهات الحضارية العامة حتى أواخر الألف الثالثة ق.م، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2006، ص ص98-99.

[122] ول وايريل ديورانت، المرجع السابق، ص83.

[123] عدنان مامو، المرجع السابق، ص400.ذ

[124] نعيم فرح، المرجع السابق، ص70.

[125] عدنان مامو، المرجع السابق، ص400.

[126] عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة، المرجع السابق، ص110.

[127] عدنان مامو، المرجع السابق، ص403.

[128] المرجع نفسه، ص404.

[129] نعيم فرح، المرجع السابق، ص72.

[130] عدنان مامو، المرجع السابق، ص403.

[131] نعيم فرح، المرجع السابق، ص66.

[132] عدنان مامو، المرجع السابق، ص396.

[133] رشيد الناضوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، الكتاب الثالث، التطور التاريخي للفكر الديني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969، ص66.

[134] المرجع نفسه، ص67.

[135] أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق دراسة حضارية، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 2002، ص167.

[136] Veronica Lons , Egyptian Mythology, 1968, p40.

[137] J.A. Wilson , The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p209.

[138] أرنولد توينبي، المرجع السابق، ص101.

[139] المرجع نفسه، ص101.

[140] محمد إبراهيم بكر، قراءات في حضارة الإغريق القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، ص ص7-8.

[141] ممدوح درويش مصطفى، إبراهيم السايح، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية 1- تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية- 1999/1998، ص1.

[142] لطفي عبد الوهاب يحي، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية-1991، ص ص48-49.

[143] المرجع نفسه، ص ص60-61.

[144] المرجع نفسه، ص101.

[145] المرجع نفسه، ص104.

[146] ممدوح درويش مصطفى، إبراهيم السايح، المرجع السابق، ص20.

[147] لطفي عبد الوهاب يحي، المرجع السابق، ص20.

[148] المرجع نفسه، ص20.

[149] رالف لنتون، شجرة الحضارة، ج2، ، تقديم، محمد سويدي، موفم للنشر الجزائر- 1990، ص402.

[150] جماعة من المختصين، موسوعة الحضارات القديمة، ط1، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت-2001، ص177.

[151] محمد محفل، محمد الزين، دراسات في تاريخ الرومان، ج1، منشورات جامعة دمشق (2006-2007)، ص ص1-2.

[152] جماعة من المختصين، المرجع السابق، ص177.

[153] محمد محفل ومحمد الزين، المرجع السابق، ص ص25-26.

[154] المرجع نفسه، ص34.

[155] هـ، ج، ويلز، موجز تاريخ العالم، ج1، تر، عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة-2003، ص288.

[156] جماعة من المختصين، المرجع السابق، ص183.

[157] المرجع نفسه، ص184.

[158] محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر- 1992، ص ص19-20.

[159] المرجع نفسه، ص34.

[160] محمد الخطيب، الحضارة الفينيقية، دار علاء الدين، دمشق، 2007، ص78.

[161] محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، دار الهدى عين مليلة، الجزائر-2006، ص ص28-29.

[162] محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي، مرجع سابق، ص32.

[163] كان للسير "ألن جاردنر" العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة، فضل السبق في اشتقاقها من الهيروغليفية، وأنها ترجع إلى الأسرة 12.

انظر: محمد الخطيب، المرجع السابق، ص140.

[164] محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي، مرجع سابق، ص34.

[165] محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص101. وانظر كذلك: فرونسوا دوكريه، قرطاجة الحضارة والتاريخ، تر، يوسف شلب الشام، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر- 1994، ص41.

[166] المرجع نفسه، ص102.

[167] محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم –السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر-1995، ص ص 45-46.

[168] محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، ص26.

[169] محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص47.